

تاريخ علم النفس

الفرقة الأولى علم النفس (ساعات معتمدة)

كود المقرر نفس (١١١)

أستاذ المقرر

أ.م.د/ سعاد سعيد محمود

د/ رضا محمد حامد

مدرس علم النفس-كلية الآداب - جامعة جنوب الوادي

العام الجامعي

٢٠٢٢/٢٠٢١ م

تاريخ علم النفس

محتويات الكتاب

الفصل الأول

ما هو علم النفس

الفصل الثاني

نظرة سريعة إلى القضايا

الفصل الثالث

فيلهم فونت وعلم النفس البنائي

الفصل الرابع

علم النفس في مجتمع الصناعة

الفصل الخامس

علم النفس والانحياز الاجتماعي

تقديم :

لعله مما يستوقف النظر حَقًا أن المكتبة العربية تكاد أن تخلو من
الكتابات المتخصصة في تاريخ علم النفس.

فرغم وفرة الكتابات الأجنبية في هذا المجال، ورغم أن علم النفس في
بلادنا قد أصبح له تاريخا لا بأس به، رغم كل ذلك فإننا لا نذكر سوى
مجالات نادرة للترجمة، لعل أبرزها ترجمة لطفي نظيم لكتاب " علم النفس في
مائة عام ثم محاولة مازالت تتعثر في سبل النشر لتسجيل تاريخ علم النفس
في مصر خلاصة القول إننا نبذو كما لو كنا عازفين عن الخوض في هذا
المجال، مجال التاريخ لعلم النفس، رغم أننا مولعون بالسير والتواريخ بحكم أننا
أقدم الشعوب تاريخا.

ولسنا على أي حال بصدد تفسير هذه الظاهرة، يكفينا مؤقتًا رصدها
ومحاولة تجاوزها. وللحقيقة فإن محاولتنا هذه ليست بالمحاولة الحديثة، بل
إنها تكاد أن تصبح ولأكثر من اعتبار محاولة تاريخية "لتاريخ علم النفس "
فمنذ ثمانية عشر عاما أتيح لي أن أنشر في مجلة " الفكر المعاصر "القاهرية
عددا من المقالات تتضمن رؤية لتاريخ علم النفس ثم أتبعها بعد فترة بمقالين
في مجلة "شئون عربية" البيروتين . وبعد سنوات طوال نشرت مقالا في مجلة

علم النفس المصرية حاولت فيه إلقاء الضوء على بعض ما كنت أجمله عن التاريخ السياسي لفيلهم فونت.

وعبر تلك السنوات الطوال، لم ينقطع تواصلني مع تاريخ علم النفس، فقد كانت مادة "تاريخ علم النفس" هي أول مادة يعهد إلى بتدريسها لطلاب الفرقة الأولى بقسم علم النفس بجامعة عين شمس ولم أجد أمامي في البداية غير ترجمة لطفي نظيم لكتاب ج.ل. فلوجل المشار إليه وهي

ترجمة متميزة دون شك. ولكنني أحسست أن الكتاب ملما بآلاف التفاصيل التي لا ينتظمها إطار تفسيري يحيط بها وينظمها ويفسرها. فضلا عن صعوبة استيعاب طالب الفرقة الأولى لهذا الكم الهائل من التفاصيل التي يتعرف عليها للمرة الأولى.

ونظرت في مقالات المنشورة، فأحسست أنها "وجهة نظر" قدمتها للمتقف العام، ولذلك فإنها لا تقف طويلا أمام تفاصيل النظريات والتجارب والمقاييس وما إلى ذلك من إنجازات علمية يحفل بها تاريخ علم النفس. ولم ألبث أن قدمت لطلابي مزيجا بدا لي معقولا بين "وجهة النظر" التي تحملها مقالاتي المنشورة، وبين أجزاء من كتاب فلوجل تزود الطالب بقدر من التفاصيل،

واضعا في اعتباري بطبيعة الحال أن ثمة موادا أخرى يدرسها الطالب في
فرقته الأولى قد تزود، بقدر إضافي من التفاصيل المطلوبة.

وبعد مضي تلك السنوات، مازلت أرى أن التاريخ إنما هو في النهاية
وجهة نظر من تفاصيل الأحداث، وليس مجرد سرد لتلك الأحداث. ومازلت
أرى أيضا أن المؤرخ لا يستطيع - مهما حاول - أن يفلت من تبنى وجهة
نظر في الأحداث التي يرويها سواء أفصح عن وجهة نظره تلك أو لم يفصح.
وسواء كان على وعي بتبنيه لوجهة نظر بعينها أو كان غارقًا في وهم
إمكانية العزل بين رواية الحدث واتخاذ موقف فكري حياله. ومازلت أرى -
أخيرا. أن تاريخ العلم لا يمكن بحال أن ينفصل عن تاريخ المجتمع، وأن
إنجازات رجل العلم لا يمكن أن تتفصل عن وجهة نظره حيال الحياة والمجتمع
والتاريخ، ولا عن مساهمته السياسية والاجتماعية في ذلك الخصم.

أما الجديد في هذه الطبعة فهو أننا استبدلنا بتلك الفصول المترجمة عن
كتاب فلوجل، بفصول ترجمناها خصيصا من كتاب أحدث منه لعالم النفس
الأمريكي ميشيل فرتيمر، وصدر عام ١٩٧٢ بعنوان "قضايا أساسية في علم
النفس" ويرجع اختيارنا لهذا الكتاب بالذات إلى ما يتميز به من رؤية لمنجزات
علم النفس المعاصر تردها إلى القضايا الأساسية التي شغلت ومازالت تشغل

الفكر الإنساني .ومثل هذه الرؤية تيسر للمتخصصين - فضلا عن المهتمين
-توظيف منجزات علم النفس في إطار اهتمامات بل وهموم الإنسان بما هو
إنسان.

الفصل الأول

ما هو علم النفس

ماهو علم النفس :

إذا صح أن علم النفس دراسة للإنسان وعقله ، ولكيفية تصرف الكائنات الحيه ، وللحب ، والابتكار ، ولتغيير الشخصية وثباتها ، وللفكر والسلوك فإن قلة من العلوم هي التي يمكن أن تضاهية من حيث أهميته الجوهرية الملحة . فهو بالغ الثراء والتعقيد يغطي العديد من القضايا ويدلف إلى العديد من شتى المجالات.ولكنه يجمع إلى ذلك التنوع افتقاداً جديداً للتماسك الداخلي ، بحيث يصعب على المرء أن يعرف من أين ينبغي أن يبدأ إذا أراد أن يستكشف معالمه . ان علم النفس اشبه مايكون بلوحة رسم معقدة تبدو أجزاؤها جميعاً للرأى فى نفس اللحظة ، يكمل بعضها بعضاً ، ويتفاعل كل منها مع الآخر ، ولكن الكتاب أو المقرر الدراسى أشبه مايكون بمقطوعه موسيقية ، تبدأ عند نقطة ما ويعايشها المستمع عبر الزمن . ترى كيف ينبغي على المرء أن يقدم علم النفس.

سوف نقوم فى هذا الصدد بفحص ذلك الكيان المدهش لعلم النفس بأن ننظر فى شئ من التفصيل إلى عدد قليل من القضايا التي يتناولها . فالإنسان لم يكف طيلة العصور عن طرح التساؤلات عن نفسه وعن العالم المحيط به .

ولا شك أن تلك التساؤلات قد احتلت مكانه جوهرية ضاربة الجذور في أفكاره منذ بزوغه ككائن مفكر يعى ذاته . وتباينت أساليب طرح تلك التساؤلات ، كما تباينت أشكال ترابطها من عصر إلى عصر ، ومن مكان إلى مكان ، بل ومن فرد إلى آخر . وتعد محاولة صياغة تلك التساؤلات بصورة متماسكة - حتى ولو لم تكن صياغة نهائية حاسمة - سبيلاً للتعريف بمجال علم النفس .

ولسوف نسعى في هذا الكتاب إلى تقديم علم النفس من خلال صياغة بعض القضايا المتواترة التي تناولها وبتناولها علماء النفس ، وذلك بدلاً من الجوس خلال آلاف التجارب ومئات النظريات ، ملتقطين شيئاً من هنا ، و شيئاً من هناك في محاولة لتقديم صورة خاطفه لعلم النفس ولن يخلو عرضنا بطبيعة الحال من الإشارة إلى العديد من الدراسات ، والعديد من النظريات ولكن اهتمامنا في المقام الأول سوف يكون منصرفاً إلى تخطيط ذلك الإطار الواسع الذي يعمل داخله علماء النفس . ويتضح هذا القصد من تتالي فصول الكتاب.

لعلم النفس جوانب وأصول شتى . وجذور كلمة علم النفس فى حد ذاتها إنما تعنى دراسة النفس أو الروح أو العقل ، وثمة العديد المتنوع من الأشياء التى تبدو للوهلة الأولى وكأن لا علاقة بين بعضها والبعض تتعايش جميعاً تحت مظلة تلك الكلمة . ولكن كما أن أجزاء الإخطبوط متعددة الأذرع قد تبدو مستقلة منفصلة عن بعضها البعض ، لكل منها أنظمتها العضلية والعصبية المنفصلة ، ولكن تلك الأجزاء جميعاً تتبعث بالفعل من بؤرة عامة مشتركة ، فإن الأجزاء المتباينة لعلم النفس كذلك تمتد جذورها إلى بؤرة عامة مشتركة . ومثل هذه البؤرة لايسهل وصفها ، فهى تغير من شكلها من وقت لآخر كصنيع الأميبا التى لاتستقر على شكل محدد ، بحيث تبدو مختلفة تماماً باختلاف مواقع النظر إليها . ويعنى ذلك فى النهاية أن علم النفس اليوم - رغم ما يجمع بين أجزائه - إنما هو شتات من أشياء متباينه بحيث يكاد يستحيل على المرء - إذا لم يشأ أن يكون متعسفاً - أن يقدم تعريفاً لهذا العلم يجمع بين البساطة والكفاية .

نسمع أحياناً من يطلق على علم النفس اسم دراسة العقل ، باعتبار أن مجال اهتمام هذا العلم يتمثل فى العمليات العقلية . وقد يبدو مثل هذا التعريف مناسباً تماماً ، غير أنه ليس ثمة رابطة بين تلك الحالات أو العمليات الذاتية وبين جانب لا يستهان به من علم النفس ، ويتسع نطاق هذا

الجانب ليشمل مدى واسعاً ابتداءً من بحث التغيرات الكيميائية التي تحدث في المخ أثناء تعلم الحيوانات وذلك ضمن دراسة تأثيرات التركيب الوراثي للفئران على إدمانها للكحول ، وانتهاءً إلى مقارنة التكرار النسبي للخطأ في قراءة المؤشرات ذات الطرز المختلفة للطائرات . فضلاً عن ذلك فإن هناك العديد من فروع العلم الأخرى - تضم بعضاً من الفلسفة وكثيراً من الدراسات الأدبية - التي تعلن هي أيضاً أن دراسة العقل منوطة بها .

وثمة تعريف آخر ، لعله الأكثر انتشاراً حالياً ، يعتبر أن علم النفس هو علم السلوك . ويؤكد هذا التعريف أن لعلم النفس منهجاً علمياً ، بما يعنى عادة أن له مضموناً موضوعياً . ووفقاً لهذا التعريف فإن اهتمام علم النفس ينحصر في السلوك وليس العقل أو الخبرة . ولقد اعتقد السلوكيين أن قصارى ما نستطيع ملاحظته كعلماء إنما هو مايفعله غيرنا من البشر أو الحيوانات ، وليس مايشعرون به أو يفكرون فيه .

ولعل الكثيرين يختلفون مع مثل هذا التقييد . فضلاً عن ذلك فإن من دارسى السلوك - ومن بينهم بعض علماء البيولوجيا - من لايعتبرون أنفسهم ضمن علماء النفس . وعلى أى حال فإن هذا التعريف مازال يستخدم على نطاق واسع.

وثمة تعريف آخر قد يبدو انهزامياً وإن كان الكثيرون مازالوا يحملونه محمل الجد . وأصحاب هذا التعريف إنما يقرون عملياً بهزيمتهم بقولهم إن علم النفس هو مايمارسه علماء النفس بصفتهم هذه . وربما كان مثل هذا المنحى مثيراً للسخط حيث إنه فى الحقيقة لايقدم أية معرفة بهوية علم النفس أو بما يتناوله هذا العلم وأن كان - يعترف بأن لعلم النفس من التعريفات ماقد يضاهى عدد من علماء النفس . أن أولئك الذين يطلقون على أنفسهم اسم " علماء النفس " يمارسون أموراً بالغة التباین حتى أن الشئ الوحيد الذى يحفظ لهذا المجال تماسكه هو اتفاق هؤلاء الذين يعملون فى نطاقه على تسمية أنفسهم علماء النفس سواء كانوا من المهتمين بالعلاج النفسى أو السيكوفيزيقا . وسواء كان موضوع اهتمامهم هو ذباب الفاكهة . أو الفئران ، أو البشر . وسواء تعاملوا بأجهزة الحاسب الآلى ، أو بالمتاهات ، أو ببقع الحبر . وسواء كانوا من المشتغلين بقضايا التعلم ، أو الحب ، أو عقاير الهلوسة .

وعلى أى حال فأياً كان اختيار المرء لتعريف علم النفس أو للتعرف عليه ، فإن علم النفس يظل دوماً موضوعاً خالياً . فالمطلوب يقدمون عليه متوقعين أن تكشف أمامهم أسرار وجودهم هم ، وأن يجدوا المعنى لوجودهم ، وأن يحققوا استبصاراً إذا ما مست دراستهم التحليل النفسى . والبشر جميعاً توافقون بطبيعتهم لمعرفة أنفسهم . ورغم أن لدى علم النفس بعض ما يمكن للمرء الفاهم أن يفيد منه ، سواء فيما يتعلق بحياته هو أو بحياة الآخرين ، فإن غالبية البحوث النفسية المعاصرة تقوم فى إطار المعرفة الخالصة ، أى المعرفة من أجل المعرفة فحسب ، شأنها شأن البحث فيما شهدته أذربيجان عام ١٩٤٥ من أحداث سياسية مثلاً ، أو البحث فى التركيب الفيزيائى لبلورات الثلج ، أو فى تصنيف نباتات الزينة ، أو الدراسة الأركيولوجية للعنكبوتيات .

قد يتكون لدى بعض الطلاب بعد دراستهم المقرر التمهيدي في علم النفس إحساس بأنه قد غرر بهم بشكل أو بآخر ، فهم لم يحققوا ماكانوا يتوقعونه من استبصار بأنفسهم وبسلوكهم . ولا يلبس الطالب أن يواجه علم النفس ذو الصبغة العلمية ، وقد تحول دافعه الجوهري القديم - بعد دراسته لمثل هذا المقرر - إلى دافع عرضي لانتشوبه الأوهام .

إن المدرس الذي يتولى عرض مقدمة نمطية لعلم النفس، كثيرا ما يجد نفسه في ورطة فهو إما أن يشوه عرضه لكي لا يحطم آمال تلاميذه ، وإما أن يغامر بدفعهم إلى فقدان اهتمامهم بالموضوع . والأمل معقود على أن يواصل علم النفس تعديل صورته لدى الجماهير بحيث تتحول من " قراءة الأفكار " و"التحليل الذاتي إلى علم وتكنولوجيا السلوك، ومن ثم تدبّل حدة ذلك التعارض، حيث لن يقدم الطلاب ولديهم مثل تلك التوقعات غير الحقيقية، وأنذاك قد يبهرهم علم النفس كما هو عليه حَقًا.

لقد نشر عالم النفس الراحل فيلمور هـ .سانفورد " Fillmore H. " Sanford " عام ١٩٥٨ مقالا في مجلة عالم النفس الأمريكي، لم يتناول فيه ذلك التساؤل عن هوية علم النفس وإن كان قد عرض إجابة شافية لتساؤل مشابه عن من هو عالم النفس؟ وكانت إجابته رقيقة ومتواضعة قدم فيها منظورا بالغ العمومية حرص أن يتحاشى فيه الإشارة إلى أية اتجاهات أو نظريات أو موضوعات بعينها .ولكنها - أي تلك الإجابة - تنقل بالفعل جوهر ما يدور حوله علم النفس حاليا وكيف يمارس علماء النفس عملهم كمتخصصين في هذا العلم.

عالم النفس هو ذلك الذي يعبر في مختلف المواقف على تنوعها عن اعتقاده بجدوى تناول العلمي لمشكلات السلوك الإنساني .فهو في المعمل ينسج النظريات، ويطرح الفروض، ويختبر أفكاره، وينشر نتائجه .وهو يفعل نفس الشيء في العيادة مستخدما من الأساليب ما يناسب مواجهة مختلف المشكلات .وهو يؤمن بأن مشكلات السلوك الإنساني قابلة للحل .وهو يؤمن بالأدلة الواضحة . ويؤمن بإمكان التوصل إلى الاستدلالات المناسبة حيال أية مشكلة إنسانية.

إنه متحرر من الروتينية اللفظية ويستطيع أن يبحث عن بدائل للصياغات النظرية للمشكلات . وهو رجل علم بأوسع ما تعنيه الكلمات ملتزم بأخلاقيات العلم، وبما تعنيه تلك الأخلاقيات من إكبار للوقائع، وللمنطق، وللموضوعية، ولإمكانية الاختبار، ولتواصلية المعرفة، وبمؤقتية ما يركن إلى صدقه . أنه رجل علم، يتحلى بتواضع العلماء . ذلك التواضع الذي يبقى العقل متفتحا، والذي يفضل التشوش المستتير على اليقين العملي . ونظرا لأنه لا يملك معرفة نهائية، فإن عليه أن يستكشف دوما . ونظرا لأنه لا يغلق عقله ، فإنه يفتح أذنيه وعينه.

ورغم أنه رجل علم، فإن تواضعه يمنعه من إغلاق عقله أمام احتمال ألا يكون بمقدور العلم والإحاطة الشاملة بدقائق الوجود الإنساني . ووقوف ذلك، فلعل تعرضه الحميم لجوهر الطبيعة الإنسانية هو الذي يجعله أكثر حساسية وتعاطفاً حيال أي شخص أيا كان حجمه أو شكله سلالته أو مهنته أو لونه .

ويتشارك مع تلك الميول والاتجاهات عدد من المهارات الفريدة للعالم النفسي :ثمة مهارات نظرية تمكنه من صياغة المشكلات، وتخطيط الفروض القابلة للاختبار .

وثمة مهارات المعالجة، تلك المهارات الموجهة إلى اختبار الأفكار الأولية غير المحددة. وثمة مهارات التقييم التي يحتاجها عالم النفس لاتخاذ قراراته بشأن إمكانية الحصول على البيانات المطلوبة ومدى تعلقها بالموضوع .

وهكذا فإن علم النفس بأوسع معانيه هو اتجاه أو طريقة في التفكير وفي التصرف حيال مشكلات إنسانية . ويستطيع عالم النفس المعاصر أن يردد كلمات تيرنس " Torence " التي مضت عليها قرون عديدة " أنني إنسان : وليس ثمة شيء ذا طابع إنساني أستطيع أن أكون لا مباليا حياله . " ليس ثمة شيء إنساني يمكن أن يبدو غريبا أو مغتربا في نظر ذلك الإنسان : عالم النفس الحديث .

لعل عنوان هذا الفصل الموجز كان يبدو واحدا بإجابة بالغة الوضوح للتساؤل عن هوية علم النفس . وقد يحس القارئ أننا قد نحينا ذلك السؤال جانبا . ورغم أننا لم نجب مباشرة على التساؤل فقد عرضنا لأكثر من تعريف محدد، مستبعدين أن يكون أيها بمثابة التعريف الوحيد . فقد كان لكل منها ما يذكر له، وأيضا ما فاته أن يشير إليه .

ولعلنا نستطيع النظر إلى بقية صفحات هذا الكتاب باعتبارها نوعاً آخر من تعريف المجال. وقد يميل القارئ بعد شيء من الألفة بالمجال إلى محاولة اصطناع تعريفه الخاص. ففي

النهاية يبدو من المستحيل أن نصل إلى صياغة تضم علم النفس كله ويقبلها علماء النفس جميعاً. ولذلك فإن التعريف الذي قد يتوصل القارئ بنفسه إلى صياغة بعد ألفته بالمجال قد يضاهاه سواه من التعريفات سواء من حيث كفاءته أو من حيث مثاليته.

ومن المحتمل ألا تكون ثمة حاجة حقيقية لتعريف "نهائي" للمجال أن الوعي ببعض البدائل المتاحة ونواحي قوتها ووضعها قد يكون أكثر جدوى من القبول المتعسف لوجهة نظر معينة والانقياد الأعمى لها. ولذلك فقد كان هذا هو سبيلنا حيال غالبية التساؤلات الأخرى التي سنتناولها في الصفحات التالية: إلا نزعم بأن إجابة محددة أو وجهة نظر بعينها هي الأفضل أو الأصح، بل إن نسعى إلى فهم وتفضيل تعدد البدائل.

الفصل الثاني

نظرة سريعة إلى القضايا

محتويات الفصل :

نظرة سريعة إلى القضايا

ملاحظات حول أسلوب القضايا

القضايا الجوهرية

القضايا المنهجية

نظرة سريعة إلى القضايا :

كثيرا ما يعلق الدارسون النجباء لعلم النفس على ما يبدو لهم من تشتت غير مترابط للمقررات التي يدرسونها فيه .ألا يعدو علم النفس إذن أن يكون مجرد ركام متناثر من المجالات، والمشكلات، والأساليب التي حدث أن تجمعت بمحض الصدفة تحت عنوان " علم النفس؟ "الإجابة لا : فثمة قدر من الاستمرارية .ثمة ما يجمع بين مختلف الاتجاهات والمجالات الفرعية .وتهدف محاولتنا الراهنة إلى إبراز بعض القضايا التجميعية مما يمكن أن يقلل إلى حد ما من ذلك التشابك غير المتمايز، الذي يشمل كل ما يقع تحت عنوان علم النفس، مثيرا لمشاعر الإحباط والحيرة.

ملاحظات حول أسلوب القضايا :

لقد ظلت المجادلات في علم النفس تدور - عبر العصور - حول عدد من الأسئلة المحورية . ويصعب الفصل بين بعض هذه الأسئلة وبعضها، فهي كلها تتعلق بالإنسان في نضاله من أجل التوصل إلى هويته وماهيته، ومن ثم فإن أية محاولة لفصم ما يربط بينها إنما هي محاولة حمقاء . غير أن ثمة قرارات تعسفية لابد من اتخاذها : ما هي تلك القضايا التي تعتبر أساسية؟ أي تسمية نطلقها على القضية بعد اختيارها؟ وأي ترتيب ترتضيه لطرح ما تثيره القضية من أسئلة؟ ورغم ذلك فإن هناك الاتجاه يتيح للمرء أن يستخلص بعضاً من الفهم من ركان الأحداث والألغاز المتزايد والذي يشكل علم النفس . ثمة ملاحظة تمهيدية ثانية : ترى لماذا سوف نعرض كل قضية قد تناولها في صورة قطبين متواجهين؟ أهو الولوج الفكري بالتصنيف إلى أبيض - أسود؟ أم لأن القضايا بطبيعتها أميل إلى أن تتخذ هذه الصورة أي س في مقابل حي، موقف في مواجهة موقف، وليس صورة التساؤل عن كمية س؟ - المفهوم أن مقياساً يبدأ من الصفر ويتجه يساراً أو إلى أعلى أو إلى الأمام وفقاً للترتيب الذيقع عليه اختيارك (يمكن أن يقدم نموذجاً جيداً يتسع لأسئلة لا نهاية لها . وكذلك فإن كلا من نموذج " الطرف الأدنى - الوسط - الطرف

الأقصى "أو نموذج" الطرف الأدنى- الطرف الأقصى"، يبدو متقناً وصالحاً للتطبيق. أن الأسلوب الذي اخترناه للعرض قد يبدو أحياناً مشوباً بقدر من التعسف أو الاصطناع، ولكن يجعل الأمور أكثر اتساقاً وأيسر تناولاً.

وفضلاً عن ذلك فإن للقطبية خاصية جيدة حيث يساعد كل نقيض على

تعريف نقيضه. فالقطب هو ما ليس القطب المناقض.

أما ملاحظتنا التمهيدية الأخيرة فهي أنه رغم انقسام قضايانا إلى قطبين

متواجهين إلا أن لغالبيتها خاصية مخادعة تتمثل في أن تجميع القطبين

المتعارضين يؤدي إلى بزوغ بناء جديد أكثر رقياً وإنتاجية.

القضايا الجوهرية :

إن أحدا من علماء النفس لا يستطيع أن يتحاشى اتخاذ موقف - حتى ولو ضمينا - حيال عدد من القضايا شبه الفلسفية كتلك التي نوشك أن نتناولها. فمثل تلك القضايا تفرض نفسها بشكل أو بآخر على كل سؤال أو بحث له طابع نفسي. والموقف الذي يتخذه الفرد حيال تلك القضايا يشكل تفكيره في مجال علم النفس أو يتشكل تبعا له في كافة المناحي، فضلا عن أنه يمكن أن يترك بصماته أيضا على حياته اليومية خارج إطار الممارسة المهنية.

سوف نقوم مناقشتنا على عشرة مسائل أساسية اثنتان منها تتعلقان بكيفية سعي المرء لبلوغ بغيته، وكيفية ممارسة المرء لعمله كعالم نفسي. أما بقية المسائل فتتعلق بالمواقف حيال قضايا معينة أكثر تحديدا إلى حد ما.

ونستطيع أن نطلق على المسألتين المتعلقةتين بالمنهج اسم القضايا المنهجية، وأن نطلق على بقية المسائل اسم القضايا الجوهرية. ولما كان يبدو ومنطقيا أن نتناول المسائل الأساسية المتعلقة بالمضمون قبل النظر في كيفية المعنى في دراستها، فلنبدأ إذن بالقضايا الجوهرية ثم نمضي بعد ذلك إلى القضايا المنهجية.

"الإنسان سيد مصيره" في مقابل "الإنسان ضحية المقادير"

هل يجلس الإنسان على مقعد القيادة، أم أنه مجرد مسافر ملقى على المقعد الخلفي مقيدا مكمما؟ إلى أي حد يستطيع أن يقرر ما سوف يحدث له، وما سوف يفعله، وإلى أين يمضي؟ هل هو حرفي يختار من بين البدائل العديدة التي تواجهه بها الحياة، أم أن اختياره محتوم أيا كان؟

يرى كارل روجرز " Carl Rogars " (١٩٥١) أنه إذا ما اتاحت للفرد الفرصة من خلال علاقة متسامحة متفهمة، فإنه يستطيع أن يحقق رؤية واضحة للمسالك المختلفة التي تفتح أبوابها أمامه .ويفضل طبيعة الإنسان المتطلعة للأمام ، والتمهئة للسعي الإيجابي، فإنه يستطيع الاختيار الحكيم لأفضل الطرق التي يتبعها .ويرى المعالجون النفسيون الوجوديون نفس هذا الرأي (على سبيل المثال : ماي " May " ، ١٩٦١) حيث يرون أنه لجوهر الوجود الإنساني، أن يواجه المرء قرارات أثر قرار، والمرء حر في اختيار هويته، مهما كانت معاناته في سبيل الحصول على كافة المعلومات التي قد يحتاجها أو يريدتها قبل أن يحدد اختياراته.

وعلى النقيض من ذلك يقف ب.ف. سكينر (١٩٥٣) "B.F. Skinner"

حيث يرى أن الكائنات تفعل أشياء، أي تصدر استجابات وهذه الأفعال أو

الاستجابات قد تتبعها أو لا تتبعها مترتبات معينة تتمثل في المثيرات
التدعيمية .ومن ثم فإن الاستجابات التي تليها مثيرات تدعيمية تميل إلى
الحدوث ثانية في موقف مشابه، بينما تلك التي لا تلقي تدعيما يصبح تكرارها
أقل احتمالا .وكافة الاستجابات تخضع لتأثيرات التدعيم وطبيعة الإنسان هي
سلوكه لا أكثر من ذلك ولا أقل .

وما دام السلوك خاضعا تماما لسيطرة التدعيم، وما دام الإنسان فريسة
لقوى التدعيم - وغياب التدعيم - تتقاذفه من كل صوب، فإن سلوكه خاضع
لسيطرة نزوات بيئته .الإنسان ليس سيدا بل ضحية للقوى التي تشكل سلوكه.
إن لهذا السؤال صداه في الفكر الديني أيضا .هل الإنسان مسير أم
مخير؟ أما في الفلسفة فثمة سؤال مشابه أطلق عليه قضية الإرادة الحرة في
مقابل الجبرية ومازالت تلك القضية تحظى باهتمام كبير .

هنالك إذن من يبرزون - شأن روجرز - قدرة الإنسان الحقيقية على
الاختيار، ويبدو الإنسان لديهم قادرا على اختيار طريقه، وعلى اتخاذ قراراته
بحرية، مفاضلا بين العديد من التصرفات البديلة التي يجدها أمامه في أية
لحظة مختارا التصرف الذي يرتضيه .فإذا ما كان المرء فعالا ومنتجا وسعيدا
فإنه لأمر يحسب له . وبالمثل فإن التعساء، والذين يعجزون عن الإنجاز، بل

وحتى المجرمين مسئولون أيضا عن كونهم كذلك، طالما كانت لديهم الحرية أن يكونوا وأن يتصرفوا وفقًا للأسلوب الذي يرتضونه. أما الجبريون - أمثال سكر - فإنهم يبرزون ما يتسم به السلوك من انتظامات ومن قابلية للتنبؤ بمساره، كما يبرزون حقيقة أن السلوك قابل للتغير وللضبط إذا ما تم تعديل الظروف التي تجرى في ظلها تعديلا مناسباً. ويرى بعض الجبريين أنه بدون فرضية أن السلوك حتى لا يمكن قيام علم للسلوك.

بل إن مجرد وجود ذلك القدر من الانتظام في السلوك وهو ما اتضح في عديد من مجالات علم النفس، يثبت صدق الفرضية الجبرية. إن أولئك الذين يؤمنون بالإرادة الحرة يرون أن البشر يكونون على ما هم عليه لأنهم اختاروا ذلك. أما الجبريون فيرون أن البشر إنما يكونون على ما هم عليه لأنه قد تم تشكيلهم كذلك بفعل قوى داخلية وخارجية كالوراثة والخبرة.

"الإنسان طيب" في مقابل "الإنسان شرير"

من البشر من يتأفون دوماً، ومنهم من يبدو دائماً الابتهاج. ثمّة من لا يرون إلا عبر منظار أسود، وثمّة من يميلون إلى رؤية الجانب المضيء في كل شيء. ترى هل كل شيء يمضي إلى الأفضل حقاً، وأن عالمنا هو على أفضل صورة، أم أن على المرء أن يتبع المثل القائل "ابتهج ، فليس ثمّة أقل"؟ هل على المرء أن يركز اهتمامه على ما هو إيجابي فحسب متجاهلاً السلبيات أم أن سر الحكمة إنما يتمثل ببساطة في أن يستسلم لحقيقة أن لا شيء يستحق بأي حال؟

أن لمثل تلك المواقف الفكرية ما يقابلها في الفلسفة وفي علم النفس . فالمرء يمكن أن يكون متفائلاً أو متشائماً في نظرتة لجوهر طبيعة الإنسان : هل هو طيب أم شرير بطبيعة؟ أن الموقف الذي يتخذه المرء حيال تلك المسألة كثيراً ما يتضمن تصوراً حول إمكانية قيام علم النفس فالتصور الملائكي الذي يرتفع بمنزلة الإنسان إلى عنان السماء إنما يعني أن ذلك الجوهر الشفاف للإنسان لا ينبغي أن يتعرض لعلم موضوعي بارد .ومن ثم فإنه محاولة تناول العلمي الصارم لسلوك الإنسان وعقله بعد تحقيراً منافياً للمبادئ الأخلاقية.

ولعل كلارك ل. هل " Clark L. Hull (١٩٤٣) ، وإبراهام ه. مازلو " "A Braham H. Maslow (١٩٥٤) قد يمثل طرفي النقيض في هذا الصدد. لقد اتبع هل في دراسته للسلوك أسلوبا افتراضيا - استدلاليا دقيقا، وكان حريصا على أن يكون علميا تماما . وكان يعني باستخدام هذا الأسلوب في علم النفس أنه يمكن اختزال سلوك الكائنات إلى فرضيات وأفكار واضحة الصياغة، وأن الصدق الأمبيرقي لتلك الأفكار، يمكن اختياره في المعمل تجريبيا، وأن تلك الفرضيات والأفكار وما تشكله من نظرية تخضع لما تقتضيه نتائج التجارب من مراجعة وتعديل . وبهذه الطريقة فإن النظرية تقترب أكثر وأكثر من مطابقة الظاهرة التي تحاول تفسيرها . لقد كان هل على قناعة كاملة بوجود علم للسلوك .

وفي نفس الوقت فقد كان يعتقد نظرة أقرب إلى التشاؤم فيما يتعلق بطبيعة الكائنات : فالحياة تمضي مستهدفة للشيء وهدف السلوك في حاجة إلى اختزال ، فالكائن يتعرض لسلاسل متتالية من المبهمات الحافزة ، التي يحاول عبثا أن يتحاشاها أو يقللها ولكنه لا يملك منها فكاكا . إن الإنسان يعاني في تعاسة ما يحيط به من ضغوط حاجاته الجسمية المزعجة اللامعقولة، والتي هو مزود بها نتيجة لواقعة مولده ، ويفضل ذلك الصراع الحتمي بين دوافعه وبين بيئته لا تتفهمه ولا تتيح له أن يفهمها . وكل ما

يستطيع أن يفعله هوأن يتعلم بعشوائية المحتولة والخطأ بعضا من سبل التقليل
من حالات احتياجه المؤلمة بشكل أكثر كفاءة.

أما مازلو فقد كانت لديه - على الطرف المقابل- رؤية للإنسان ككائن
متسع الإمكانيات، قادر على تجاوز احتياجاته البيولوجية الأناية . ويقتررب
بعض الأفراد النادرين من التحقيق الكامل لمواهبهم الفريدة وتحقيق حالة راقية
يطلق عليها مازلو اسم حالة تحقيق الذات . ورغم أن ظروف البيئة قد تعرف
المرء لبعض الوقت ، فإن بداخل كل فرد إمكانية أن يصبح كائنًا إنسانيا منتجا
له قيمته .ولكن - وفي نفس الوقت -فإن المقاييس والتجارب الباردة للعلم
المجرد لا تلقي هوى لدى مازلو الذي يتبنى اتجاها اكلينيكيًا وأدبيا .

وتتضمن وجهة نظره ما يعني أن القوالب الجامدة للمنهج العلمي - بمعناه
الضيق - لا يمكن لها مطلقًا أن تحقق فهما أصيلا لخصوصية الحالة
الإنسانية . لاشك أن نظرة هل إلى الإنسان أشد تشاؤما من نظرة مازلو .
ولكن هل - رغم تشاؤميته - لم يكن يرى الإنسان شيطانًا . وكانت تلك هي
رؤية غيره من المفكرين.

لقد لاحظ توماس هوبز " Thomas Hobbes " في منتصف القرن السابع عشر أن الإنسان أناني ، لا يرى إلا ذاته ، ويسعى دون هوادة لإشباع رغباته على حساب الآخرين . وليس من سبيل سوى الالتزام بعقد اجتماعي صارم لا يسمح للمرء بالتطاول على حقوق وامتيازات الآخرين ، لكي يعيش الإنسان في سلام مع أخيه الإنسان دون سرقة أو اغتصاب أو قتل أو فوضى اجتماعية . وبالمثل فقد تبني فرويد " Freud " في بواكير هذا القرن نظرة بالغة التشاؤم لجوهر الطبيعة الإنسانية، حيث إن الليبيدو - وهو مصدر الدافعية الإنسانية - يتصف بلا اجتماعية عمياء ، أنانية، جنسية، عدوانية ، مدمرة ويرى فرويد أن كافة أنواع السلوك إنما تصدر عن نبع شرير . ولكن ليس كل من كتب عن الليبيد واعتبره مفسدة.

أوتو رانك " Otto Rank " (١٩٢٩) على سبيل المثال أنه من قوى الحياة المنتجة الإيجابية الخلاقة . كذلك فإن الفرد ادلر " Alfred Adler " (١٩٢٧) قد اعتبر أن المحرك الأساسي للإنسان هو السعي لبلوغ السبيل الأمثل لمواجهة مشكلات الحياة بطريقة إيجابية متحررة .

وبذلك فإن هل ، وهوبز، وفرويد يتخذون موقفاً متشائماً في نظرتهم لطبيعة الإنسان حيث يراه هوبز وفرويد فاسداً حتى النخاع . فالإنسان كائن

شُرير، وما الإيثارية إلا وهم ، فالكل يسعى إلى إشباع رغباته الأنانية الخاصة
أما مازلو، ورائك ، وآدلر فإنهم - على الطرف الآخر - ينسبون للإنسان
نوعاً من النبيل . فالإنسان كائن يسعى للأمام ، طبيعته خيرة في جوهرها تضم
جوانحه إبداعاً ، وإنتاجاً ، وشفقةً ، وكرماً وسخاءاً.

”

التجميع "في مقابل" الكل:

ترى هل يمكن الحصول على صورة مناسبة للكل بتفكيكه إلى أجزاء ثم

إعادة إضافتها إلى بعضها من جديد؟

ولعل موضوع الشخصية يتيح لنا مثالا واضحا في هذا الصدد .هل

الشخص هو مجموع اتجاهات أفعاله، أو أنماط عاداته أو مجموع الروابط التي

تربط استجاباته بمثيراتها ؟

أم أن ثمة شيء فريد - متميز عن مجموع هذه السمة وتلك الصفة

بالإضافة إلى غيرها من الخصائص - هو الذي يشكل جوهر شخصيته ؟

إن من يعتقد نظرية التجميع يستخدم طريقًا بسيطًا واضحًا في فهم

الظاهرة باعتبارها مجموعة من العناصر التي تتكون منها . بينما يرى من

يعتقد نظرية الكل - أو الجشطلت - أنه في كثير من الأحيان لا يكون الكل

مجرد خليط خامد من أجزاء لا تتبادل التأثير في بعضها البعض.

أن الكل يتجاوز مجموع الأجزاء .كذلك فإن العلاقات بين الأجزاء تعد

أساسية من وجهة نظره، فخصائص الكل يمكن أن تحدد طبيعة الأجزاء بينما

طبيعة الكل - من وجهة النظر التجميعية - لا تعني سوى حاصل جمع أجزاء

هذا الكل .

ولعل خير نماذج لذلك التعارض بين الاتجاه التجميعي والاتجاه الكلي تتمثل في ظواهر الشخصية والإدراك والتفكير. ولننظر إلى مسألة من مسائل التعلم تعارضت حيالها وجهتي نظر كينيث سبنس " Kanneth Spence " (١٩٣٧، ١٩٣٦) وماكس فرتهيمر " Max Wertheimer " (١٩٥٩) : مسألة تغيير الأوضاع . وتبدو النتائج واضحة في هذا الصدد : ولنتصور طفلاً، أو دجاجة، أو سمكة، أو كلباً، علمناه أن يختار مثلاً المكعب الأكبر حجماً من بين مكعبين نقدمهما له أحدهما صغير الحجم والآخر متوسط الحجم. فإذا ما أحسن الاختيار نال مكافأة.

وظللنا به كذلك حتى أتقن عمله ثم دفعنا به إلى اختيار حرج. قدما له زوجاً من المكعبات : أحدهما هو نفس المكعب متوسط الحجم الذي تعلم أن يختاره من قبل ، وبدلاً من المكعب الأصغر حجماً الذي كنا نستخدمه فيما سبق، جنناً، بمكعب آخر يفوق المكعب المتوسط حجماً . ترى أي المكعبين سيختار الآن؟

أنه يختار بالقطع المكعب الأكبر حجماً متجاهلاً المكعب الآخر المتوسط

الذي كان بغيته الصحيحة فيما سبق . لماذا؟

من وجهة النظر الجشططية أو الكلية فإن ما تعلمه الكائن هو علاقة
"الأكبر من "...وأن استجابته قد قامت على الموقف ككل .ومن ثم فإن
المكعب متوسط الحجم عندما يكون جزءا من كل يضمه ومكعب أصغر
حجما منه يلعب دورا يختلف عن دوره عندما يكون جزءا من كل يضمه
ومكعب أكبر منه حجماً .فهو الأكبر في الحالة الأولى في حين أنه الأصغر
في الحالة الثانية .الكل هو الذي يحدد معنى الجزء إذن، والكائن يستجيب
لمثل تلك العلاقات والتفاعلات التي تسود بيئته .ويتساءل أنصار النظرية
الكلية: ترى إذا ما كان السلوك مجرد نتاج تجميحي خالص للعلاقات التي
تربط منبها معيّنًا باستجابة بعينها، فلماذا إذن لم يقع الاختيار في المرة الثانية
على المكعب متوسط الحجم؟

لقد حدث انتقال للاختيار إذن، ولعله لو لم يحدث لكان ذلك بالتأكيد سندا
قويا لفكرة أن التعلم مجرد تجميع بسيط . ولكن هل يعني ذلك أن النتائج
الأمبيريقية قد أدت إلى استبعاد هذه الفكرة تماما؟ لم يحدث هذا مطلقاً . وكما
أوضح سبنس في نظريته البارعة، فإن كل ما يحتاجه المرء لتفسير ما حدث
من وجهة النظر التجميعية هو افتراض أن ما غرسناه في الكائن خلال عملية
التعلم هو عن ميول تنبيهية " excitatory tendencies " لاختيار المكعب
المتوسط الحجم ، وميول تثبيطية " inhibitory tendencies " ضد اختيار

المكعب صغير الحجم ، وأن تلك الميول جميعا قد تم تعميمها بدرجة معينة وتجمعت معا .وفي الحقيقة فإن النظرية التجميعية قد أتاحت بذلك التفسير إمكانية التوصل إلى تنبؤات تتعلق بالظروف التي يمكن في ظلها إبطال هذا الانتقال ، وهي تنبؤات قابلة للاختبار (وقد تم ذلك فعلا، ولكن النتائج لم تكن حاسمة) .

يتعلم الكائن خلال المحاولات التدريبية أن يتحاشى المكعب الصغير، وفي نفس الوقت فإنه يدرك بفضل التعميم أنه ليس من الحكمة اختيار أية مكعبات صغيرة أخرى .ومن ثم يتكون لديه نوع من الهالة التثبيطية تحيط بالحجم الصغير .

كما يتكون لديه بالمثل تدريج تنبيهي يحيط بالمكعب المتوسط بحيث تخطى الأحجام التي تقترب منه ببعض من الإمكانيات التنبؤية، أي أن الكائن يميل بعض الشيء إلى اختيارها إذا ما أُتيح له ذلك .والآن، فإذا ما أُتيح لتلك التدريجات التعميمية أن توسع من انتشارها قليلا، وإذا ما تجمعت الميول التنبؤية والتثبيطية، فإن الكائن سوف يختار ذلك المنبه الذي يفوق غيره من حيث المجموع الكلي للميول التنبؤية مطروحا منها الميول التثبيطية . أن الميل التثبيطي المتعلق بالمكعب الصغير يمتد بالتعميم ليشمل المكعب

المتوسط، في حين أنه يصل بالكساد - إذا ما وصل - إلى المكعب الكبير .
أما الميل التنبهني المرتبط بالمكعب المتوسط فإنه ينتشر بالتعميم ليشمل
المكعب الكبير .ومن ثم فإن مجموع الميول التنبهنية مطروحا منها الميول
التنبهنية بالنسبة للمكعب المتوسط في الجزء الثاني من التجربة كان أقل من
ذلك المجموع بالنسبة للمكعب الكبير، وبالتالي فإن الاختيار يقع على ذلك
المكعب الكبير . وهكذا فإن النظرية التجميعية التي تقوم على اتجاهات
الاستجابة صوب الأحجام المطلقة، يمكن أن تتصدى بالتفسير لما يبدو كما
لو كان سلوكا كليا يقوم على العلاقات.

وبالإضافة إلى ما سبق، فهل من المستحسن أن نلتزم في تحليلنا
بالمطلقات، وأن نفتت الأشياء إلى وجدات سابقة التعريف، ميسورة الفهم،
يمكن بتجميعها معا أن تشكل كلا، أم أنه من الأفضل أن نركز على جانب
العلاقات بين الأجزاء، وعلى الخصائص المتوافرة في الكل وليس في أي جزء
من أجزائه على حدة؟ إن سبنس يختار وجهة النظر الأولى التي ترى الكل
مساويا لمجموع أجزائه .بينما يختار فرتهيمر وجهة النظر الثانية التي ترى الكل
متجاوزا لمجموع الأجزاء المكونة له منعزلة.

العقل "في مقابل" الجسم:

أيا كانت وجهة نظر المرء فيما يتعلق بموضوع علم النفس، وما إذا كان متمثلاً في الوقائع العقلية أو الخبرة أو السلوك، فإن عليه أن يلتزم بغيته من التفسيرات إما في إطار المصطلحات العقلية أو المصطلحات الفيزيائية. أن تفسيراً يحيل الأمر إلى ما يلزمه من وقائع فسيولوجية تجري في المخ - حقيقة كانت أم خيالاً - قد يطمئن إليه البعض ويقنعون به. بينما يرى غير هؤلاء أن معرفة العلاقة بين أشكال سلوكية معينة، وبين ما يجري في الجهاز العصبي قد تكون - في حد ذاتها - أمراً مثيراً للاهتمام ولكن تلك الوقائع العصبية لا تقدم لك في الحقيقة شيئاً على الإطلاق فيما يتصل بالوقائع السلوكية أو الوقائع العقلية على حد سواء.

ترى هل على المرء أن يستخدم المتغيرات العقلية أو السلوكية في محاولة لفهم الظواهر التي يشملها مجال علم النفس، أم أن ردها إلى المتغيرات النيوروفسيولوجية والفيزيائية هو السبيل الأوفق للفهم؟

يرى كيرت ليفين " Kurt Levin " (١٩٣٥) على سبيل المثال أن السبيل

لتفسير ما يفعله المرء والتنبؤ به هو أشبه شيء بالنفاذ داخل جلده وتبين كيف

يبدو العالم من خلال عينيه. إذا ما استطعت أن تحصل على صورة واضحة

لخير حياته " Life space " أي لرؤيته لنفسه ولبيئته بالإضافة إلى معرفة طبيعة ما يتجذب إليه، وما ينفّر منه، وما لا يبالي به، فإنك تكون آنذاك قد حققت فهما صادقًا لماهية وعلية ما يفعله المرء . وثمة صورة أخرى لنفس هذا الاتجاه نجدها في نظرية برسكوت ليكي " Prescott Lecky " (١٩٤٥) عن الاتساق الذاتي :أن المبدأ الوحيد الذي تحتاجه لفهم شخص ما هو أن تدرك أنه سوف يتصرف بطريقة تتسق مع صورته الذاتية أو تصوره لذاته .فلتتوقع شخصًا ما بأنه عاجز عن الهجاء، وسوف يرتكب من الأخطاء الهجائية الشنيعة ما لا يخطر على بال حتى ولو كان بصدد هجاء أكثر الكلمات شيوعًا، أو فلتجعله يرى في نفسه امتيًّا ز في الهجاء، وسوف يسلك تبعًا لذلك .أقنعة بأنه يكره الرياضيات وأنه لا يحسن الأداء الحسابي، وسوف يتسق سلوكه مع صورته الذاتية، فإذا ما اقتنع بالنقيض فقد يصبح عبقرية رياضية.

ومن ناحية أخرى فإن المرء يستطيع إقامة " جهاز عصبي تصوري " وهي التسمية التي قال بها د .و . هب " D.O. Hebb " (١٩٤٩) وذلك بصياغة بعض الافتراضات عن كيفية عمل هذا الجهاز العصبي، ثم استنباط التنبؤات أو التفسيرات المتعلقة بالسلوك من خلال الخصائص المفترض وجودها في ذلك الجهاز العصبي التصوري . ولقد استذهب في نظريته على أحدث ما

توصلت إليه البحوث الفسيولوجية آنذاك . وتمكن من خلال نظريته تلك أن يفسر عدداً من الظواهر النفسية كالذاكرة وخاصة فيما يتعلق بتدهور الذاكرة القريبة مع التقدم في العمر . وامتدت التفسيرات لتشمل ؛ ظواهر الانفعال ، والإحساس ، والتعلم والإدراك، والشخصية .

ترى أي الاتجاهين إذن هو الواعد بتحقيق فهم السلوك؟ هل ينبغي على المرء أن يلتزم بالتفسير في الوقائع العقلية التي تجري داخل الفرد، أم أن عليه أن يدرس الوقائع العصبية الفسيولوجية الكامنة التي بالجسم؟ أن ليفهم وليكي يفضلان إتباع الطريق الأول : على علم النفس أن يسعى لفض أسرار العقل، ويفهم النفس الإنسانية . أما هب فيختار الطريق الثاني : محاولة اكتشاف الميكانيزما البدنية والوقائع العصبية الفسيولوجية التي تتسبب في السلوك .

"الذاتية" في مقابل "الموضوعية":

هل ينبغي على علم النفس محاولة دراسة الحالات الذاتية، أم أنه من الضروري - وخاصة إذا ما كان يتطلع على أن يكون علما - أن يركز فحسب على الظواهر الموضوعية التي يمكن قياسها؟ يرى البعض أنه طالما أن الاهتمام الأساسي لعلم النفس ينبغي أن يكون بالحياة العقلية للفرد، ومادام هو العلم الوحيد المكرس خصيصا لما هو ذاتي، فإن الاستبطان - أو ما إلى ذلك من سبل للنظر داخل العقل - ينبغي أن يكون منهجه الرئيسي. ويرى آخرون أنه يستحيل إقامة علم خصوصي، وأن المعطيات العلمية الصادقة الوحيدة هي تلك التي يمكن للآخر ملاحظتها. وما دام أحدا لا يستطيع أن يلاحظ مباشرة الحالة العقلية لشخص آخر، فإن على علم النفس أن يلزم نفسه بحدود ما هو قابل للملاحظة العلنية الموضوعية. يرى الموضوعيون إذن أن على علم النفس أن يدرس السلوك، في حين يرى أنصار الذاتية أن على علم النفس أن يدرس الخبرة.

لقد قام جورج كيللي " George Kelly " في كتابه المعنون " سيكولوجية

التركيبات العقلية الشخصية" (١٩٥٥) بدراسة كيفية تفسير الفرد لعالمه. أي

الأبعاد يستخدمها لتخطيط بيئته؟ قد يدرك شخص الآخرين كطبيين أو أشرار، كطوال أو قصار، كعاطفيين أو خامدي العواطف . وقد نجد شخصا آخر أميل إلى أبعاد مثل قساوة أو رحماء ذكور أو أناث، أنكفاء أو أغبياء .. لكل فرد عدته الخاصة من التركيبات العقلية، أو منظاره الخاص الذي يرى العالم من خلاله . ولعل اضطرابا يعاني منه المرء قد يرجع إلى أن الأبعاد التي يستخدمها لتخطيط العالم ليست على ما يرام .

ربما كان يلوي أعناق ما يصله من معلومات بصورة تشوهها، أو لعله ببساطة يحول دون تلقي أنواع من المعلومات لابد من الإحاطة بها لكي يتعامل مع بيئته بنجاح . ولعله في مقدور المعالج النفسي مساعدة مثل هذا الفرد المضطرب بأن يسأله النظر في تركيبات عقلية بديلة قد تمكنه من تحقيق توافق أكثر استقرارا . وقد وقع كيلي لأسلوبه العلاجي على تسميته طريقة مناسبة هي التبديلية البنائة.

وعلى النقيض من ذلك يقف اتجاه جوزيف ووليه " Joseph Wolpe " (١٩٥٨) في العلاج النفسي والمسمى بأسلوب الكف المتبادل " reciprocal inhibition" ويستند هذا الأسلوب إلى بعض المبادئ المستقرة في مجال تشريط السلوك . يقوم المعالج بتدريب المريض على الاسترخاء، ثم تدفع

الاسترخاء هذه شيئاً فشيئاً للتصارع مع المنبهات المولدة للقلق . وحيث إن استجابات القلق لا تستطيع الصمود أمام حالة الاسترخاء ، فإن استجابات الاسترخاء الإيجابية المطلوبة لا تلبث أن تكف استجابات القلق ويتحقق بذلك شفاء المريض ودونما حاجة إلى التقييد في حالاته الذاتية.

أما مجال الانفعال فيمكن دراسته إما بالأسلوب الاستنباطي أو بالأسلوب الموضوعي . فنحن نستطيع أن نطلب من الناس وصف مشاعرهم في مواقف معينة ، أو أن نسألهم عن الانفعالات التي تستثيرها فيهم منبهات بعينها.

ونستطيع بدلا من ذلك أن ندرس المؤشرات الفسيولوجية للانفعالات كتزايد معدل ضربات القلب ، أو تزايد التوصيل الكهربائي للجلد (نتيجة لإفراز العرق) أو تغيرات النشاط العام . كما أنه من الممكن قياس تفضيلات الأفراد (والحيوانات) من خلال جهاز كذلك الذي ابتكره ب . ت . يونج " P. T. Young" (١٩٤٣) حيث يكون المطلوب من الكائن أن يختار بين شيئين .

كذلك فإنه من الممكن دراسة الإدراك بأن نطلب من الناس وصف ما يرون ، وفي بعض الأحيان بأن نستخدم أسلوب الاستجابة التمييزية فحسب ، أي بأن يطلب من الفرد أن يضغط على أحد مفتاحين إذا ما رأى ضوءاً أو سمع صوتاً وأن يضغط على المفتاح الآخر إذا لم ير أو يسمع شيئاً . كما يستطيع

المرء في مجال التعلم أن يحاول تتبع ما يطرأ من تغيير على فهم المفحوص لعمل جديد، بدلا من ذلك - أو أن يحسب له أخطائه ، أو يقيس الوقت الذي يمضيه على الهدف ، أو الوقت الذي يستغرقه لحل مشكلة.

إن أغلب مجالات علم النفس تتيح للمرء أن يختار بين أن ينظر إلى الموضوع - بشرا كان أو حيواناً - إما من الداخل أو من الخارج .ويخطى الاتجاه الذاتي تفضيلي كييلي وغيره ممن أشرنا إليهم سلفاً في هذا الفصل مثل ليفين . وتعد المعطيات الذاتية بالنسبة لهؤلاء هي المادة الخام لعلم النفس.

أما الآخرون أمثال وولبه - أو سكر على وجه الخصوص - فإنهم يتبنون اتجاها أكثر موضوعية . وتعد الأمور الخارجية القابلة للملاحظة هي النوعية التي ينبغي على علماء النفس تناولها، كالوقائع العضلية ، كحقائق قابلة للقياس بالبوصات ، أو الجرامات أو الثواني ، والوقائع الفيزيقية كحقائق قابلة بالفعل للتخصيص وللحساب.

"

الماضي "في مقابل" الحاضر:

هل ينبغي النظر في ماضي الفرد لتفسير سلوكه؟ أم أنه ينبغي التركيز على ظروفه الراهنة؟ أن بعض علماء النفس - وخاصة أولئك الذين يميلون إلى إبراز أهمية التعلم - يلتزمون فهم سبب إقدام الكائن على فعل ما يفعله من خلال فحص خبرته السابقة. بينما يبحث البعض الآخر في الحالة الراهنة للكائن، محاولين إعادة بنائها هنا والآن ، مفسرين سلوكه باللجوء إلى المتغيرات ذات التأثير في زمن حدوث الاستجابة . ترى هل على النظرية النفسية أن تكون تاريخية أم أن تتأى عن ذلك؟

يرى أصحاب نظريات التعلم أن تأثيرات الخبرة السابقة تنتشر في كل صوب . فتفسير الدافعية وكذلك الإدراك إنما يكون بإرجاعهما إلى عمليات طويلة من التعلم الشاق . فدوافعنا إنما تنبعث من ميول تعلمناها طيلة عمر من التفاعل مع بيئتنا الفيزيائية والاجتماعية ، ونحن ندرك ما علمتنا سنون جبرتنا أن ندركه.

وعلى سبيل المثال فإن جماعة من علماء النفس يعرفون باسم التعامليون " Transaction alists " قد فسروا عددا من الخدع البصرية التي ابتكروها بأنها إنما ترجع إلى توقعاتنا الإدراكية) على سبيل المثال، ايتلسون وكيلياتريك " Ittelson & Kilpatrick " (١٩٥٢) . لو نظرنا - مثلا - إلى حجرة مشوهة الأبعاد :حوائطها ، وأرضيتها، وسقفها ذات أبعاد رباعية غير مستوية ولكن نظرنا إليها كانت بعين واحدة ومن زاوية رؤية محددة ، فإننا يمكن أن نراها متخذة الأبعاد المستطيلة المعتادة .فحيث إن خبرتنا السابقة تقودنا إلى توقع أن تكون حوائط الحجرات رأسية عمودية ، وأسقفها وأرضياتها أفقية مستوية، فإننا نرى هذه الغرفة كذلك ، حتى ولو تشوه إدراكنا الأحجام الأشياء (بل والأشخاص)المتحركة داخل هذه الغرفة .وينبغي لكي نفسر مثل هذا السلوك والإدراك أن ننظر إلى خبرة الكائن السابقة ، وإلى تعاملاته السابقة مع بيئته ، وإلى ما تعلمه من توقعات عبر الزمن .

وعلى النقيض من ذلك، يؤكد كيرت ليفين على ضرورة فهم حيز الحياة الراهن إذا ما شئنا تفسير ما يفعله المرء والتنبؤية .صحيح أن الخبرات السابقة تلعب دورا هاما في تشكيل المكافئات " Valences " في حيز حياة الشخص،

أي تلك الخصائص المرغوبة وغير المرغوبة التي تجعله يقدم على فعل ويتحاشى آخر .ولكن مصدر تكوين تلك المكافئات لا يبلغ من الأهمية ما تبلغه حالتها الراهنة .إذا ما استطعت أن ترى البيئة كما تبدو للشخص في الوقت الراهن فإنك- من وجهة نظر ليفين - تستطيع أن تفهم ما يفعله هذا الشخص.

ولعل نظرة أصحاب الاتجاه الجشطلتي إلى الإدراك تتناقض بشكل أكثر حدة مع نظرة أصحاب الاتجاه التعاملي . فالخبرة السابقة قد تلعب - من وجهة نظر الجشطلتيون- دوراً في تحديد التنظيم الإدراكي ، وذلك إذا ما أحاطت بالعملية ظروف غير عادية بحيث بدت الأشياء غامضة .

وفي الغالبية العظمى من الأحوال لا تلعب الخبرات أو التوقعات السابقة سوى دور ضئيل ، إذا ما لعبت دوراً على الإطلاق : أن للبنيان الحالي المباشر للموقف التنبهية الأثر المطلق في إحداث صورة إدراكية معينة . فلنحاول ما استطعت، فلن تتمكن مهما كانت الخبرات أو التوقعات أو النوايا السابقة من أن ترى هذه الصفحة كشكل بيضاوي أو مثلث أو على أنها تمثل لإبراهيم لنكولن . سوف تبدو دائماً وبوضوح مستطيلة الشكل.

وهكذا فإن التعامليون - وغيرهم من الذين يبرزون أهمية التعلم - يبهرهم ذلك القدر الكبير من السلوك الراهن الذي يمكن تفسيره بالنظر في الخبرة السابقة. فإذا ما شئت أن تفهم سلوك فرد أو أن تتنبأ به فعليك - من وجهة نظرهم - أن تنظر إلى ما سبق أن فعله في مواقف مشابهة، أي إلى ما تعلم فعله حين واجه مثل تلك الحالات من قبل في تاريخه الماضي. ولكن أولئك الذين يتخذون موقفاً لا تاريخياً - مثل ليفين - فإنهم ينصحون بمزيد من الاهتمام بخصائص الظروف القائمة هنا والآن، وبصفات الفرد المعين في البيئة المعينة وفي لحظة بعينها أن الوصف الدقيق للموقف الراهن سوف يحقق - من وجهة نظرهم - فهما أفضل، وتنبؤاً أفضل مما لو فحصنا التاريخ السابق للفرد . وأن الأهم هو هنا والآن.

الطبع في مقابل التطبع:

إن التركيز على الماضي سبيلا لتفسير السلوك يمكن أن يتخذ واحدة من صيغتين رئيسيتين. إما فحص الصفات التي ولد الفرد مزودا بها، أو دراسة الخصائص التي تعلمها. وتلك هي المجادلة الشهيرة بين الطبع والتطبع: ترى هل الجينات تضم الشخصية والذكاء، وأنه لا فكاك لأيهما من هذا الأسار إلا خلال حيز حياة الكائن، أم أن الكائن يتعلمها؟

إن وجهة النظر الإمبريقية أو المناصرة للتطبع - والتي يمثلها هب (١٩٤٩) والتي تمثلت صورتها الأشد تطرفا في مفهوم "العقل صفحة بيضاء" لدى أرسطو وجون لوك منذ قرون بعيدة، ترى أن الإنسان لا يعدو أن يكون عند مولده سوى صفحة بيضاء تقوم الخبرة بالكتابة عليها. ليس ثمة أفكار أو حتى ميول ولادية. علينا أن نتعلم إدراك المكان.

المرء لا يكون مزودا بشيء على الإطلاق عند مولده، وكل ما يكون عليه الإنسان إنما هو نتاج لخبرته التي حصلها، أي نتاج للتطبع. ويرى أصحاب المذهب الطبيعي - على النقيض من ذلك - أن الشيء الكثير يكون موجودا بالفعل عند الميلاد، ربما خلال بنية الجهاز العصبي. ومن ثم فإنه يحدد كيفية إدراكنا للعالم. ولذلك فإن بعض الأفراد يكونون بحكم تكوينهم الوراثي الخاص

كسالى في حين يكون غيرهم نشطين .ويولد البعض أذكاء، والبعض أغبياء .
يولد البعض ولديهم موهبة موسيقية، والبعض يفتقدونها .ترى هل هو الطبع أم
التطبع هو المحدد الرئيسي للسلوك، أو - إذا ما شئنا تعبيراً أقل تطرفاً - فأى
العاملين أكثر أهمية من الآخر: الوراثة أم البيئة؟

فلننظر إلى مشكلة كإدمان الكحول .لقد درس جيرالد ماكليرن " Gerald
Mclearn " ود .رود جرز " D. Rodgers " (١٩٦١)المورثات السلوكية
لتفضيل الكحول لدى الفأر .فإما بتربية سلالتين منتقاتين من الفئران على أن
تتزاوج كل سلالة من أبناء سلالتها بحيث أصبح لدينا سلالتين منفصلتين تما
ما . وقد تصرفت كل سلالة تصرفاً مختلفاً تما ما حين تعرضت لاختبار
تعاطي الكحول .فعندما أُتيحت المفاضلة بين الماء النقي، وذلك المختلط بقدر
كبير من الكحول فإن الفأر المدمن والذي ينتمي لسلالة معينة أشاح عن الماء
النقي، بينما تحاشى زميله الذي ينتمي للسلالة الأخرى الكحول تما ما .لقد
اتضح من هذه التجربة أنه ليس ثمة علاقة بين تعاطي الكحول أو عدمه وبين
كيفية تنشئة الفأر ونوعية الخبرات التي حصلها، ولكن الأمر يرجع فحسب إلى
تركيب الجينات أي إلى الوراثة.

وعلى النقيض من ذلك فإن بعض علماء النفس الإكلينيكي، والمحللين النفسيين يلتمسون أسباب إدمان الكحول في تكوين شخصية الفرد أو في خبرات طفولته الأولى. ربما كان الأمر في إدمان هؤلاء الراشدين للكحول راجعا إلى أنهم قد دللوا كأطفال، أو لأنهم لسبب أو لآخر يعانون من ميلو اعتمادية ملحة، أو لأنهم قد تعلموا ممارسة العدوان السلبي حيال الآخرين وحيال العالم. أو لعله ذلك النمط من الأسرة الذي يكون فيه الأب سلبيا، في حين تكون الأم قوية مهيمنة مما يولد نوعا من الشخصية تبحث عن السلوان في الكحول أن خبرات العلاج النفسي توصي بأن مثل تلك العوامل قد تلعب دورا مسببا في العديد - بل ربما في الغالبية - من حالات الإدمان الكحولي المتطرفة التي يصعب السيطرة عليها.

وعموما، فإن كلا من الطبع والتطبع يلعب بلا شك دورا بارزا في غالبية أنواع السلوك المركبة. ولكن يبقى على المرء أن يختار إبراز أحدهما أكثر من الآخر، أن تهيم أساسا بالمحددات الولادية للسلوك، أو بالتأثيرات الغالبة للتعلم. فبينما خصص ماكليرن جهوده البحثية لدراسة إسهام الوراثة في عديد من أنواع السلوك، فإن غالبية علماء النفس الأكلينيكي، وأصحاب نظريات التعلم يبدون اهتماما أكبر بتأثيرات التعلم على السلوك.

التبسيط في مقابل التركيب:

يحاول بعض الباحثين إرجاع أكبر قدر يستطيعونه في مجال دراستهم إلى قانون واحد أو إلى عدد محدود من القوانين العامة البسيطة. ويرى البعض أن مثل ذلك الاتجاه التبسيطي إنما ينتهك الظاهرة النفسية. إن اختزال كافة ما تتضمنه ظاهرة حل المشكلات والتفكير مثلا إلى سلاسل من الترابطات أو إلى منعكسات شرطية متتالية، أو إلى سلاسل من روابط المثير - الاستجابة، كل ذلك لا يؤدي - في رأيهم - سوى إلى نوع من التبسيط المخل.

لقد طرح إدوين ر. جوثري " Edwin R. Guthrie " (١٩٥٢) نظرية للسلوك تقوم على قانون مفرد وحيد: وقتما تحدث استجابة معينة، فإنها ترتبط دوما بكل عنصر من عناصر المنبه القائمة وقت حدوثها. ويمكن الاعتماد على هذا القانون في تفسير العديد من مختلف الظواهر وخاصة التعلم.

ولقد بين جوثري - فضلا عن ذلك - كيف أن هذا القانون يمكن أن يستخدم في فهم الظواهر الاجتماعية، والشخصية، وعلم النفس التربوي وما إلى ذلك. فالتعلم - كما يقول جوثري يتحقق عادة بشكل تدريجي لأن عناصر المنبه إنما تمس الكائن في تقلب مستمر وترتبط الاستجابات المناسبة بنفس تلك العناصر. وترجع فعالية الثواب إلى حقيقة أنه يؤدي إلى تغيير جذري في

ظروف التنبيه .كذلك فإن الشخصية هي بمثابة الحصلة الكلية لاتجاهات الاستجابة.

وعلى النقيض من ذلك فإن كارل جوستاف يونج " Carl Gustav jung

" (١٩١٦) يطرح نظرية في طبيعة الإنسان بالغة التركيب، ويغلب عليها

الطابع الروحاني .إن ذلك المحلل النفسي يتحدث عن لا شعور فردي، ولا

شعور جمعي، وكلاهما يؤثر على السلوك بطرق معقدة .وتلعب الخبرات

الانفعالية السابقة للفرد دورا هاما، وكذلك الأنماط الأولية للاشعوره الجمعي -

أي تلك النماذج الانفعالية البدائية مثل "أمننا الأرض"، و"الشرير" و"الإحساس

الأوقيانوسي"، و"الأب القادر". وقد يكون الشخص انبساطيا أو انطوائيا ولكنه

لا شعوريا يكون على النقيض من ذلك .فقد تتمركز حياته العقلية حول

الإحساس أو الحدس، في حين تدور حالته الروحية حول الفكر أو المشاعر.

إن نظرية جوتري تتميز بالبساطة، في حين أن نظرية يونج بالغة

التركيب .وتتناثر على صعيد علم النفس العديد من المشكلات التي يمكن

النظر إليها نظرة بسيطة أو نظرة مركبة .ويرى أنصار النظرة البسيطة إنها

تتيح فهما أيسر، كما أنها تحقق تنبؤا جيدا وأن لم يكن مكتملا .أما ذلك الذي

يرفض التبسيط، يدعو إلى دراسة الظواهر على ما هي عليه من تعقيد

طبيعي، فإنه لا يرغب في التعرض لمخاطرة التزييف والتشويه، ولكن في نفس الوقت يقع في خطورة ألا يمض به الطريق بعيدا حيث ينتهي إلى أمور بالغة التعقيد ، عسيرة الفهم بحيث لا يجد أحدا يعيره أذناه صاغية .

القضايا المنهجية :

ثمة مسألتين " استراتيجيتين " تمضيان عبر غالبية القضايا الجوهرية، وقد اخترنا أن نطلق عليهما " الثراء في مقابل الدقة " و" النظرية في مقابل المعطيات " وتتضمن هاتين المجموعتين من القضايا العديد من القضايا الفرعية، ولكن فلنتناولهما حاليا بإيجاز وبصورة مجملّة . ونظرا لما تتضمناه من تفاصيل عديدة فلسوف نخصص لكل منهما فيما يعد فصلا مستقلا.

الثراء في مقابل الدقة:

يستطيع عالم النفس أن يتناول الظاهرة التي يهتم بها كما هي عليه من ثراء غامض معقد، أو أن يحاول أن ينحى جانبا تلك الجوانب الغائمة الحدسية الغامضة مركزا على إبراز العلاقات الدقيقة الواضحة البعيدة عن الغموض.

لقد قام روبرت و . وايت " Robert W. White " على سبيل المثال -

في كتابه الحياة في تقدمها (١٩٦٦) بتقديم سير حياة شاملة مزودة بنتائج

اختبار أكلينيكي، لعدد من الأفراد الأحياء . ولقد كتب المادة ببراعة وتمكن

بحيث تجسد الأشخاص الذين تناولهم بالوصف كما لو كانوا شخصا أبدعتهم

قريحة قصاص مقندر . وقد اعتمد على كل من تلك السير - وكانت كل منها

تتضمن دراستين متعمقتين تفصل بينهما مدة عشر سنوات - لكي يدرس

بالتفصيل ما يطرأ على الشخصية من تغيرات عبر الزمن .وأسهمت كل حالة في تصوير بعض المبادئ العامة الشاملة التي عالجها وايت بشكل أكثر تنظيماً في الفصول التي وزعها فيما بين استعراضية للحالات .وكانت كل معلومة عن كل فرد تتصل اتصالاً وثيقاً بفهم كيفية تطوره عبر الأعوام تفحص فحصاً دقيقاً .واعتمد وايت على حدسه الأكلينيكي الخاص، وكذلك على دراسات من سبقه من الباحثين لفهم الأثر العام للتقدم في العمر على الشخصية .إن قراءة النتيجة العامة التي انتهى إليها وايت تعد أمراً مدهشاً حقاً، حيث يبدو أنه قد تمكن بشكل ما أن يضع يده على جوهر الحالة الإنسانية دون أن يلجأ إلى تشويهاها أو تبسيطها تبسيطاً مخلاً.

وعلى النقيض من ذلك، قدم وليام إيستس "William Estes" (١٩٥٩) صياغة كمية دقيقة لما يحدث خلال عملية تعلم مخططة إلى حد ما .وفضل إيستس أن يتعامل مع زوج من الاستجابات (كالضغط على واحد - مفتاحين) على المرء أن يتعلم أداءها تحت ظروف تنبئية محددة تحديداً واضحاً (إضاءة لون معين أو لون آخر مثلاً) ويبدو مثل ذلك النموذج نمطياً في مجال التعلم بعامة، كما أن الظروف التجريبية تتيح مماثلة معملية محددة واضحة نقية لما يجري من تعلم في الحياة اليومية .وتتضح روعة الاتجاه الذي استخدمه إيستس وتلامذته في إمكانية إخضاع نظرية ذات صياغة

رياضية واضحة دقيقة للاختبار حول تجارب محكمة .ويحدد النموذج الرياضي للتعلم الذي صاغه إيستس طبيعة الشكل الذي ينبغي أن تتخذه وظيفة التعلم، وكيف ينبغي أن يتحسن الأداء بالممارسة، كما يقدم الأساليب الدقيقة لقياس خصائص ذلك المنحنى .وبفضل اتجاه إيستس أمكن إخضاع إحدى العمليات النفسية الأساسية على ما هي عليه من تركيب وتعقيد للدقة التجريبية ولل فحص النظري الدقيق.

إن اتجاهها حدسياً أو إكلينيكياً كاتجاه وايت يميل إلى إبراز الثراء، بينما اتجاهها رياضياً تجريبياً كاتجاه إيستس يهتم بالدقة والإحكام وليس ضرورياً أن نتناول العديد من المجالات الأساسية للمشكلات لنبين امتداد هذا التباين المنهجي .إن موضوعاً مثل تكوين الانطباع أو " الإدراك الاجتماعي"، أي مسألة كيف يدرك الأفراد غيرهم، قد درسه -في إطار الاتجاه المتهم بالحدس أو الثراء - باحث مثل فريتز هيدر " Fritz Heider " (١٩٥٨) معتمداً على خبرته ومقدرته الثرية على استشفاف الحكمة الإنسانية متوصلاً إلى صياغة تحليلية مركبة للعوامل التي تؤثر في كيفية رؤية الشخص أ للشخص ب.

وفي مقابل ذلك فقد قام نورمان اندرسون " Norman Anderson "

(١٩٦٥) بدراسة تجريبية منظمة لما يترتب على تقديم صفات معينة تصف

شخصاً افتراضياً إلى المفحص ثم القيام بقياس كمي لمدى ما تتركه هذه الصفات من انطباع طيب أو سيئ لديه.

لقد تميز اتجاه وايت وهيدر بالثراء، كما تميز اتجاه إيستس وأندرسون بالدقة. إن أولئك الذين يحرصون على ثراء المادة يودون الإحاطة بأدق تفاصيل الظاهرة التي يدرسونها متحاشين أي تبسيط مخل . فهم يرون أن غالبية الوسائل الدقيقة تنتهك موضوع الدراسة وتشوّهه ولا تقدم سوى صورة ناقصة أو كاريكاتيرية للحقيقة . أما أولئك الذين يستهدفون الدقة فإنهم على النقيض يعلنون من قيمة الوضوح والبساطة والإحكام المنطقي . ويميلون إلى التريث حيال الأفكار الغامضة أو المهتزة . ويرون أن غالبية الاتجاهات التي تستهدف ثراء المادة لا تقدم شيئاً ذي بال عما تتصدى لدراسته طالما أنها لا تطرح ما تتوصل إليه بصورة ملموسة تسمح بشكل قاطع بأن تستخلص منه نتائج قابلة للاختبار .

النظرية في مقابل المعطيات:

إن الجميع - تقريباً - يودون لو حققوا نوعاً من الدمج بين النظرية والمعطيات، كأن تتبثق النظريات من المعطيات، وأن تدفع النظريات المرء للبحث عن معطيات جديدة، وأن تستخدم المعطيات لتثبيت النظريات أو لتعديلها.

ورغم ذلك فإن الاختلافات في الأسلوب أو التفضيلات تظل قائمة. ترى هل على المرء أن يركز أساساً على التنظير أم على جمع البيانات؟ أن الفارق بين عالم الفيزياء النظري، على جمع البيانات؟ أن الفارق بين عالم الفيزياء النظري، وعالم الفيزياء التجريبي شبيه بالفارق المماثل في مجال علم النفس، ولكنه في علم النفس قد يكتسب مذاقاً مختلفاً إلى حد ما. ففعل الأمر في مجال الفيزياء وقد تراكمت - إذا ما قورنت بعلم النفس - ثروة ضخمة من النظريات والبيانات، يجعل من مثل تلك المقابلة نوعاً من التوزيع الأوضح للعمل.

ولكي نوضح ما يتعلق بعلم النفس من هذه القضية، فلننظر إلى موضوع الشخصية كما تناوله أصحاب التحليل النفسي أمثال سيجموند فرويد "

Sigmund Freud " وأصحاب التحليل العاملي أمثال هانز - جيرجن إيزنك
" Hans Jurgen Eysenck " (١٩٤٧) .

لقد استخدم فرويد معطيات من نوع معين :استمع إلى مرضاه يقولون ما
يخطر لهم أيا كانت طبيعته .ولكن هذه ليست بمعطيات بالمعنى المؤلف في
صياغة النتائج المحكمة للقياسات الدقيقة .لقد كان فرويد مهتما في المقام
الأول في استخراج معنى نظري من الظاهرة التي يتصدى لها في أحلام
مرضاه وتداعياتهم الطليقة . ولقد توصل فرويد خلال صراعه لفهم أعماق
الشخصية الإنسانية إلى وضع مبادئ جسورة ، وابتكار مفاهيم نظرية حاذقة.
أما منهج إيزنك في دراسة الشخصية فقد كان يقوم على تكديس كميات
هائلة من القياسات النفسحركية والإدراكية لمجموعة من الأفراد، ثم إخضاع
تلك القياسات لأساليب خاصة من التحليل الكمي : معاملات الارتباط
المتبادلة والتحليل العاملي .وقد أتاحت له نتائج الحاسبات الآلية أن يحدد
عاملين أساسيين :العصائية والانطوائية- الانبساطية ولم يتم توصيف هذين
العاملين .في صورة نظرية معينة، بل في صورة درجات الأداء على اختبارات
سرعة النقر، وزمن الرجوع، وما إلى ذلك .فقد قام إيزنك بقياس كم مرة
يستطيع المرء في زمن محدد أن يضرب بمطرقة معدنية قطعتين معدنيتين

تبعدان عن بعضهما عدة بوصات، وكم يستغرق من الوقت للضغط على ذراع آلة البرق بعد سماعه إشارة صوتية معينة يطلب منه الاستجابة لها بأسرع ما يمكن، وهكذا لقد استخدم إيزنك لتحديد أهم أبعاد الشخصية أسلوب العلاقات الكمية المتبادلة بين المعطيات، بدلا من الحدس أو الاعتبارات النظرية المسبقة.

ثمة نموذج آخر للاتجاه الذي يميل إلى النظرية يتمثل في جيمس ج . ميللر "Games G – Miller" (١٩٥٥) وما يعرف بنظريته الكونية العامة، وهي محاولة لتفسير الظواهر النفسية كحالات عرضية خاصة للمبادئ التي تنطبق على العالم الطبيعي كله ابتداءً من الفيزياء الذرية إلى العلوم السياسية. ولنقارن ذلك بما سعى إليه - ضمن ما سعى - أ. ه. فير " E. H. Weber " منذ حوالي قرن ونصف قرن في دراساته للإحساس، من تعرف الحد الأدنى لفارق الوزن الذي لا بد من تواجده بين ثقليين ليستطيع المرء أن يميز بينهما. أو فلننظر إلى بعض البحوث الأحدث في مجال الهندسة البشرية والتي تتعلق بحساب سرعة دوران ذراع التدوير كدالة لطول الذراع ومقاومته، نحن هنا بصدد ما يكاد وأن يكون قياسا من أجل القياس (فرغم ما قد يكون لتلك القياسات من تطبيقات عملية هامة، فإن جمعها لا يتم وفقاً لدلالاتها النظرية) .

وكثيرا ما نسمع في أيامنا هذه، عن عدم جدوى تجميع بيانات إذا لم يكن لذلك علاقة مباشرة ببعض النظريات الجارية، أو إذا لم يكن عام لا مساعدا لخلق نظرية جديدة. وكثيرا ما نسمع كذلك من يعلن أن أية علاقة جديدة تستحق أن تدرس، وأن القياسات الجيدة للوقائع النفسية ليست في حاجة إلى دفاع، وأن المعنى النظري يحتل مكانة ثانوية بل إنه يمكن تجاهله. أن من يستهدون بالنظرية أمثال فرويد أو ميللر يسعون من أجل نظرة شاملة تتيح لهم تفسير مدى واسع من الوقائع أو الظواهر النوعية المختلفة. أما أولئك الذين يستهدون بالمعطيات أمثال إيزنك أو فبر فإنهم يكونون أكثر ألفة بالقياسات المحدودة، الصغيرة، الوسواسية، ويولون اهتماما ما بالعموميات أقل من اهتمامهم بما هو محدد.

الجزء الثانى

بداية لأبد أن نقرر أن نتناول مسيرة علم النفس هو في نهاية الأمر نظر إلى الماضي، أو بالأحرى نظر فيه. والنظر في الماضي لا يستقيم - فيما نرى - ولا يصح إلا إذا ما سبقه تحديد لملامح الحاضر. هذا الحاضر الذي يجد بشكل أقرب إلى الملموس المحسوس نتاج تلك المسيرة أو ما أدت إليه. انطلاقاً من هذا الحاضر نستطيع أن نعيد النظر فيما مضى، واضعين في الاعتبار أن هدفنا في النهاية ليس الماضي في حد ذاته، بل ولا الحاضر أيضاً إنما هو المستقبل. مستقبل علم النفس في العالم بعامة، وفي وطننا العربي على وجه الخصوص.

نظرة في حاضر علم النفس...مظاهرة أزمة:

التاريخ تيار متصل، والفصل فيه بين الماضي والحاضر بل والمستقبل يحوي قدراً من التعسف، قد يزيد أو يقل. فحاضر اليوم هو ماضي الغد وهو مستقبل أمس. ومن ثم فلا بد لنا من تحديد فترة زمنية معينة نعتبرها تعسفاً بمثابة "الحاضر" ولتكن تلك الفترة هي السنوات العشر الأخيرة أي من أواخر الستينات إلى أواخر السبعينات على وجه التقريب.

الحصاد كم هائل، يفوق القدرة على التصنيف والتبويب، متجاوزاً دون شك القدرة الفردية على التقييم والحكم. ولكننا نستطيع - اختصاراً للجهد - أن

نلتقط من هذا الركام الكثيف عددا من المحاولات التي قام بها البعض من علماء النفس بهدف تقييم هذا الحصاد.

أصدر الباحثان الأميركيان ماكجرات والتيمان عام (١٩٦٦) كتابا ضمناه نتائج بحث مسحي منظم قاما به للدراسات العلمية المنشورة في مجال ديناميات الجماعات الصغيرة، وقد بلغت الدراسات التي خصصت لبحثهما ما يتجاوز الألف وخمسمائة دراسة. وقد خلص الباحثان إلى أن الموضوعات التي تتناولها تلك الدراسات قد تميزت بالتفاهة. وأن تلك التفاهة لا ترجع إلى عدم كفاءة التقنيات المتاحة أو إلى عدم توافر الإمكانيات من أي نوع، بل ترجع إلى نمط القيم السائدة بين الباحثين والتي أطلقوا عليها تعبيراً يجمع بين الطرافة والدلالة هو " قيم المقاولين " " The entrepreneurial ethic " التي فسرها بأنها تلك القيم التي تؤكد على الكم على حساب الكيف، وعلى صرامة المنهج على حساب مجالات التنظير العلمي الخلاق. وقد تمثلت "التفاهة" التي عناها ماكجرات والتيمان في أمرين: الأمر الأول هو إجحام تلك البحوث عن تناول القضايا الهامة التي تواجه المجتمع، والأمر الثاني هو النتائج التي توصلت إليها.

وتؤكد دراسات كايسلر وزملائه وشريف وزملائه وكذلك دراسة هوفلاندر أن الأمر ليشمل مجال علم النفس الاجتماعي كله. بل إن كولمان يوسع من ذلك النطاق ليشمل علم الاجتماع أيضا، وليس علم النفس الاجتماعي فحسب، مؤكدا أن ما يعاينه علم الاجتماع من تجاهل للتغير الاجتماعي... "بدفع المرء إلى التشكك في أن التخصص ككل.. يتجه نحو دراسة الثوابت الاجتماعية، ويصبح عاجزا في وجه التغيير... أن التغيير الاجتماعي، والحركات الاجتماعية، والصراع والسلوك الجمعي، هي بمثابة المناطق المتخلفة في مجال البحث الاجتماعي... بل إنها لم تمس حتى الآن" ويمض مظفر شريف خطوة أبعد مؤكدا "أن إهمال المشكلات الملحة ليس قاصرا على علم النفس الاجتماعي وحده، بل يشمل العلوم الإنسانية جميعا."

تري ما مدى صحة استخلاص مظفر شريف فيما يتعلق بعلم النفس؟

في الاجتماع السنوي للجمعية النفسية البريطانية، والذي انعقد في منتصف إبريل عام ١٩٧٠ ألقى عالم النفس البريطاني وليام هيدسون خطابا عرض فيه لأزمة يعاني منها علم النفس المعاصر، وتتمثل في فجوة تزداد اتساعا، تفصل بين علم النفس كما يقوم بتدريسه هيدسون وأبناء جيله، وبين دارسي علم النفس من الشبان الذين "....يجدون سعادتهم وثقافتكم لدى ليفي

شترابوس، وشومسكي، وشوتز، ولينج. ولا يجدون سعادة ولا ثقافة فيما أضعه تحت أنظارهم من كتابات لثقافات ذوي اتجاهات عقلية أكثر أمبيريقية... أنهم لا يرون في تراث العلوم الإنسانية الأمبيريقية سوى واحد فحسب من منافذ عديدة مفتوحة حيالهم: البنائية، الفينومونولوجية، والأنثروبولوجية وما إلى ذلك. أنهم أكثر اهتماما بالعمليات الاجتماعية والثقافية، وليست تلك التي تجرى داخل المجتمع فحسب بل وداخل أنساق المعرفة أيضا... أنهم يرون أن اعتقادي الذي نشأت عليه، وهو النظر إلى علم النفس باعتباره علما للسلوك هو أما على المستوى الوصفي مجرد خطأ، وأما أنه تعبير لفظي على أيديولوجية خفية" ..وقد يذهب بعضهم إلى القول بأن وجهة النظر الأمبيريقية أو السلوكية إنما هي وجهة نظر أيديولوجية بالمعنى السياسي البالغ الحدثة الذي يتبناه ماركوز: أي بمعنى أن كلا من الفلسفة اللغوية وعلم النفس ليسا سوى أجزاء من خطة رأسمالية تستهدف منع الدارسين من توجيه التساؤلات التي لا تكشف عن طبيعة ما يدرسونه فحسب، بل أيضا عن جذور السلطة في المجتمع الذي وجدوا أنفسهم فيه."

ويمضي هرسون مرجعا أسباب تلك الفجوة إلى:

"أن هناك انفصالا بين توقعات تلاميذنا فيما يتعلق بطبيعة علم النفس، وبين علم النفس الذي تقوم بتدريسه لهم. أنهم يتوقعون أن يتعلموا شيئاً عن أسباب عدم إنسانية الإنسان حيال الإنسان ونحن نعلمهم أمور تتعلق ببناء الاستبيانات وشبيهه فئران أو خنازير التجارب. أنهم يريدون أن يتعلقوا شيئاً عن الروح الإنسانية والفعل الإنساني. ونحن نقدم لهم أسسا للمنهج العلمي. أنهم يبحثون عن حيوية الموضوع بكل ما تحويه الكلمات من معان، ونحن نود أن نعلمهم صرامة البحث العلمي."

والقضية إذن وفقاً لما يقول به هرسون أن علم النفس - في عيون دراسيه من الإنكليز على الأقل - يعاني من أزمة تتمثل في انفصاله عن موضوعه الرئيسي: الإنسان.

ولقد يتبادر إلى الذهن للوهلة الأولى تساؤلان:

أ) أليس محتملاً أن تكون تلك الفجوة التي تحدث عنها هرسون بين أساتذة علم النفس ودارسيه ظاهرة جيلية خالصة؟ أليس من المحتمل أنها الفجوة الطبيعية المتوقعة بين علم الشيوخ وحكمتهم، وبين خيال الشبان واندفاعهم؟

إذا ما صح ذلك فإنه لمن التعسف أن تعتبر الأمر بمثابة أزمة يعاني منها علم النفس بالذات.

ب) أليس من الجائز أن يكون برمته ظاهرة بريطانية خالصة؟ أليس محتملا أن تكون تلك الأزمة نتاجا لظروف نوعية مميزة للمناخ الفكري البريطاني؟ إذا ما صح ذلك فإنه لمن العسف أن نعتبر الأمر بمثابة أزمة يعاني منها علم النفس بعامة.

لقد حاولنا أن نجيب على التساولين معا بأن ننتقل بمجال تفهينا إلى الولايات المتحدة الأمريكية بدلا من بريطانيا، وأن ننتقل به أيضا إلى علماء النفس بدلا من دارسيه.

فى صيف عام ١٩٦٩ نشرت مجلة العلاج النفسى المعاصر - وهى دورية أمريكية - مقالا لعلم النفس الأمريكى شترفيور شتاين بعنوان "الحالة : الولايات المتحدة الأمريكية .المظهر المرضى :فيتنام وتحمل أولى عبارات المقال تشخيصا لأزمة علم النفس كما يراها فيور شتاين: يكفى أن يتحدث المرء إلى مناضل زنجي من أبناء الجيتو، أو إلى طالب ثائر أو إلى أحد المتمردين على هيئات المعونة الخيرية، أو إلى أحد الراضين لأداء الخدمة العسكرية، لكي تتضح له ضآلة ما قدمه علم النفس لتلك القطاعات الكبيرة من أبناء أمتنا .نرى أين كانت جهود علم النفس والعنصرية تتفشى لعشرات

السنين،؟ ترى ما طبيعة الدور الذي لعبه علم النفس من أجل محاربة الفقر،
والعنصرية والعسكرية....؟

ترى ماذا في مقررات علم النفس التي نضعها ونقوم بتدريسها قد أدى إلى
مثل ذلك العجز من التمكن من التأثير الفعال على المشكلات الاجتماعية
المعاصرة الكبرى....؟ أن علماء النفس لا يحتلون مكانة بارزة بين قادة
التحرك من أجل تقوية ودعم النضال ضد تفشي الظلم الاجتماعي بل إنهم
أكثر ميلا إلى العمل والتعاون مع المؤسسات التعليمية غير الديمقراطية،
والنظم الاجتماعية المتعصبة عنصريا، والسلطة النامية للتحالف الصناعي
العسكري المعادي لتحالف جماهير الشعب دون وعي أو اهتمام كبير بما
يتضمنه كل ذلك من أبعاد اجتماعية.

قد يبدو للوهلة الأولى أن الأمر لا يعدو أن يكون مجرد وجهة نظر
يسوقها هذا العالم النفسي الأمريكي أو موقف شخصي فردي لا يعبر مهما
كانت صحته - عن اتجاه

قائم داخل نطاق علم النفس الأمريكي .ولكن الأمر في حقيقته على غير
ذلك تما ما .أن حديث فيور شتاين تعبير عن اتجاه منظم، وعن حركة
اجتماعية واضحة الخطوط محددة الأهداف .حركة لها تنظيمها الفعلي الذي
يعبر عنها وهو منظمة علماء النفس الأمريكيين من أجل النضال الاجتماعي

"ويعرف فيور شتاين - في مقاله - هذه المنظمة بقوله: "أن منظمة علماء النفس الأمريكيين من أجل النضال الاجتماعي تعد تعبيراً عن محاولات علماء النفس الانطلاق من ذلك البرج العاجي الذي يفرضه انعزالهم نسبياً أو كلياً عن مجال احتياجات المجتمع المتصارعة. وتهدف المنظمة إلى تجميع علماء النفس الذين يشعرون بأنه في تلك الحقبة المضطربة الحاسمة بما تتضمنه من تجديلات واقعة تماماً باندلاع الحرب النووية، وبما تتضمنه من اتساع لنطاق الفقر، ومن عنصرية، ومن آلاف الآفات الاجتماعية، في تلك الحقبة، ينبغي على علماء النفس أن يصنعوا شيئاً أكثر من مجرد الوقوف عند حد الدراسة والتفكير.

ويكفي أن نشير إلى عدد من أسماء علماء النفس الأمريكيين المشاركين في نشاطات هذه المنظمة ليتضح لنا حجم التأثير النسبي لها. تضم المنظمة من علماء النفس هاربيت بار بمركز بحوث الصحة العقلية بجامعة نيويورك، وصاحبة البحوث المتخصصة في مجالات الشخصية والعمليات الإدراكية المعرفية والأساليب الإسقاطية. ومارتين دويتش المعالج النفسي وأستاذ علم النفس في جامعة نيويورك وصاحب الدراسات المتخصصة في التوافق المهني والتعليمي وسيكولوجية المراهقين المضطربين انفعالياً. وجيريم فرانك أستاذ الطب النفسي بجامعة جونز هوبكنز وصاحب الاهتمامات المتخصصة في

مجال الجوانب السيكولوجية للعلاقات الدولية. وايريك اريكسون من جامعة هارفارد وهيريت كلمان الأستاذ بجامعة هارفارد أيضا والمتخصص في البحوث غير الحضارية، والسلوك القومي والدولي.

ودافيد كرتش أستاذ علم النفس الاجتماعي. وزيلا لوريا من جامعة تافت وصاحبة الاهتمامات بسيكولوجية النمو وسيكولوجية المرأة. وروبرت ماكلويد الأستاذ بجامعة كورنيل وصاحب الكتابات المعروفة في مجال علم النفس الفينوسنولوجي وخاصة فيما يتعلق بسيكولوجية المعاني اللغوية ومونرو ميللر بمعهد العلوم السلوكية بجامعة كولوراد والذي تبرز اهتماماته في مجال العلاقات بين الجامعات، والصراعات فيما بين الأفراد. وهنري مواري أستاذ علم النفس بجامعة هارفارد، وصاحب الاتجاه النظري المعروف في مجال الشخصية. وهارولد بروشاتسكي أستاذ علم النفس ورئيس قسم الدراسات العليا بجامعة نيويورك سيتي وصاحب الإسهامات التجريبية في مجالي الإدراك والدوافع. فضلا عن إسهاماته في مجال دراسة التعصب العنصري. وبرانارد ريس مدير مركز الدراسات العليا للصحة العقلية في نيويورك. وميلتون روكيتش الأستاذ بجامعة ميتشيغان وصاحب الدراسات المتخصصة في مجالات النظرية المعرفية والأيدولوجية الاجتماعية، وتنظيم وتغيير القيم والاتجاهات. والن وليامز رئيس فرع نيويورك بالرابطة النفسية الأمريكية

APA والذي تتركز اهتماماته أسا سا في مجالات التحليل النفسي، وديناميات الجماعة وسيكولوجية الإعلام، وجين سيوليفان من جامعة نيويورك وهيرمان ويتكين الأستاذ بجامعة نيويورك ستيت والمهتم بمجالات تطور الشخصية، والأحلام والعمليات المصرفية .وكينيث كينستون من جامعة بال.

لقد حرصنا على عرض تلك النماذج - وهي مجرد نماذج فحسب - من

الأسماء بشيء من التفصيل لسببين:

الأول، أنها تشير بوضوح إلى أن المنتمين إلى " منظمة علم النفس الأمريكيين من أجل النضال الاجتماعي "ينتمون إلى كافة اتجاهات ومدارس وفروع علم النفس تقريبا .السبب الثاني، أن استعراض تلك الأسماء يشير أيضا إلى أن هؤلاء العلماء لا ينتمون إلى جامعة واحدة ولا إلى منطقة جغرافية واحدة في الولايات المتحدة.

لقد قامت تلك المنظمة الأمريكية بدعوة فروعها في كافة أنحاء الولايات المتحدة الأمريكية إلى عقد وتنظيم مجموعة من المؤتمرات لبحث الجوانب السيكولوجية والاجتماعية لإنهاء الحرب في فيتنام .وقد انعقدت بالفعل تلك المؤتمرات في عديد من الجامعات الأمريكية تمتد من جامعات كاليفورنيا بلوس أنجلوس، واريون بابوجين إلى جامعات الينويس بشيكاغو وماسا شوستي ببوشطن، إلى جامعات نيوجيرسي بروترفورد، وكونيكتكت بنيوهافن.

وانعقد واحد من تلك المؤتمرات في جامعة نيويورك في مارس عام ١٩٦٩
وقد دعت إلى الاجتماع رئيسة فرع نيويورك من فروع المنظمة عالمة النفس
الأمريكية ايثيل تويخ أستاذة علم النفس بجامعة نيويورك ثم مديرة المعهد
الأمريكي للتاريخ الطبيعي. وتحدث في المؤتمر روبرت الن المعالج النفسي
وأستاذ علم النفس والتربية بجامعة ميامي قائلاً:

"لا أظن أن الذين يشاركون بوعي في قتل تلك الأعداء الهائلة من الرجال
والنساء "والأطفال في فينتام سوى قلة ضئيلة من أبناء هذا الوطن. ورغم ذلك
فإننا نحن جميعا الذين أعددنا لذلك الذي يحدث. أي ما يجري اليوم إنما يتم
باسمنا وبتدعيمنا وبدولاراتنا التي ندفعها كضرائب وبأصواتنا الانتخابية. ولم
يكن ممكناً أن يحدث كل ذلك بدوننا. أنه لم يكن ليحدث إلا إذا أعددنا الناس،
وأعددناهم جيداً بحيث يرون أنفسهم مجرد أشياء تؤثر في أشياء أخرى..".

أما فرانك كولينز عالم النفس الأمريكي الذي يعمل في مجال الخدمة
الدراسية وصاحب الاهتمامات المتخصصة بسلوكية النمو والمراهقة
وبالأساليب الإسقاطية فقد قال مستهلاً إحدى ندوات المؤتمر:

"إنكم يا علماء النفس قد بعتم أنفسكم لشارع ماديسون أفينيو لقد بعتم
أنفسكم لكي يتمكن الجيش من دفع الشبان الصغار إلى الشعور بأنهم على ما

يرام بعد استدعائهم للتجنيد ووضعهم أنفسهم كلية في خدمة المؤسسة العسكرية" ..

وعلى أي حال فلسنا في مجال التقييم التفصيلي لفكر ونشاط" منظمة علماء النفس الأمريكيين من أجل النضال الاجتماعي يكفينا أن نستخلص أن ثمة تيارا بين علماء

النفس الأمريكيين لا يسلم بأن علماء النفس في أزمة فحسب بل يصل أصحاب هذا التيار إلى حد الإدانة والتجريم لعلم النفس الأمريكي السائد.

وفي الحقيقة فإن الأمر لا يقتصر على هذا التيار التنظيمي وحده، فثمة تنظيمات أخرى في الولايات المتحدة الأمريكية تتخذ نفس الموقف، ويكفي أن نشير من بينها على سبيل المثال لا الحصر إلى منظمة" القضية المشتركة"، ومنظمة" اللجنة الأمريكية الطبية للعمل السياسي" ومنظمة" الرابطة السيكولوجية للطلاب السود" ومنظمة" رابطة علماء النفس السود" وجميعها منظمات أمريكية تقوم على أكتاف أعداد من علماء النفس الأمريكيين. صحيح أنهم بحال التيارالغالب من علم النفس الأمريكي، ولكنهم بلا شك تيارا صاعدا من بين تيارات علم النفس هناك.

أزمة علماء النفس الأمريكيين لا تختلف إذن عن أزمة أقرانهم من البريطانيين. أزمة قد تتعدد مظاهرها: من تضارب في النتائج، إلى إحساس بتفاهة الموضوعات المطروحة، إلى تنديد بارتباط علماء النفس بخدمة السلطة القائمة أيا كانت طبيعتها، إلى شعور طاغ بأن علم النفس قد اهتم كثيرا بدور ما كان ينبغي عليه أن يقوم به.

أن عالم النفس الأمريكي مارك بيليسوك الأستاذ بجامعة كاليفورنيا ببيركلي، يعد فيما نرى - واحدا من خيرة المعبرين عن تيار الرفض والإحساس بالأزمة في علم النفس الأمريكي ويقول بيليسوك في مقال نشره عام ١٩٧٣ بعنوان "الحقيقة والوهم في الاستفادة من المعرفة التي تتيحها العلوم الاجتماعية:"

إن مقدرة العلوم الاجتماعية على تعديل سلوك الأفراد واتجاهاتهم ليست إلا جزءا متكاملا من أجزاء التكنولوجيا. وأننا لنخطئ خطأ مؤسفاً في فهم هذه التكنولوجيا الحديثة إذا ما اعتبرناها معرفة محايدة يمكن أن تستخدم في الخير أو في الشر على حد سواء...أننا لنخطئ خطأ مؤسفاً في فهمنا لزملائنا، وفهمنا لأنفسنا أيضا إذا ما اعتقدنا أننا نبحث عن الحقيقة ابتغاء لوجه الخير فحسب، ومن أجل صالح كافة المحتاجين أو عديمي الحيلة في العالم من

سجناء، طلاب وأطفال، ومرضى تقليين، وفلاحيين معدمين .أنا نحن الخبراء
التكنولوجيين لسنا في الحقيقة سوى جزءا - وجزءا ها ما - من هذا البناء
الاجتماعي المسئول عن الفقر والبؤس.

ويمضي بيليسوك في مقاله مدلا على ارتباط علم النفس الأمريكي
بالسلطة الأمريكية العنصرية الرجعية، مستشهدا في ذلك بما قدمه ويقدمه
علماء النفس الأمريكيون من خدمات في مجالات محددة مثل ظاهرة الهروب
من المدارس، والتحقيقات البوليسية، والحرب الفيتنامية، والتجسس إلى آخره .
ثم يقدم بيليسوك على تفسير هذا الموقف بقوله:

"ترى لماذا يقوم علماء النفس بكتابة المؤلفات التي يستفيد منها رجال
البوليس في التحكم في سلوك المقبوض عليهم؟ لماذا لا يحدث العكس؟ إنه
لتساؤل هام وخطير ...أن الأطفال السجناء والمرضى والفلاحين الفيتناميين
ليس لهم من يمثلهم في لجان المنح المالية، ولا في هيئات التعيين في
الجامعات .أنهم لا يستطيعون منحنا الهبات والترقيات والمناصب . أنهم لا
يستطيعون شراء خدماتنا."

إن حقيقة كون علماء النفس الأمريكيين يعملون في خدمة السلطة
الأمريكية، لترتبط ارتباطا وثيقا بحقيقة أخرى أكثر عموميا وهي أن علماء

النفس - أمريكيين كانوا أو غير أمريكيين هم في نهاية الأمر أبناء مجتمعاتهم .يسري عليهم -وعلى علمهم أيضا - ما يسري على سواهم من قوانين الصراع الطبقي والوعي الطبقي وما إلى ذلك .ولعل أبرز ما يدل على صحة ما نقول هو تلك الأزمة التي تفجرت مؤخرا في الرابطة النفسية الأمريكية والتي كشف تفجرها عما تمارسه هذه الرابطة من اضطهاد لعلماء النفس الأمريكيين تمارسه هذه الرابطة من اضطهاد لعلماء النفس الأمريكيين من غير البيض .ولقد تبلورت تلك الأزمة في محاولة علماء النفس الزوج تكوين رابطة خاصة بهم.

وفي هذا الصدد يقول عالم النفس الأمريكي تشارلز توماس مدير مركز بحوث المشكلات الاجتماعية والعنصرية بجامعة كاليفورنيا بأن ديجو في مقال نشره عام ١٩٧٣ بعنوان " دور عالم النفس الأمريكي الأبيض في الدفاع عن النظام."

"إن عالم النفس الأبيض لا يمكن إلا أن يدافع عن النظام الاجتماعي القائم طالما أنه يتلقى منه مقابلا مجزيا نظير ما يقدمه له من خدمات. فإذا ما ترامى له أن يغير من طبيعة خدماته تلك تغييرا جذريا فلسوف تنقطع عنه مكافآت ذلك النظام الذي يعمل فيه."

ويمضي تشارلز توماس موضحا:

"إن استجابة علماء النفس البيض لإقامة رابطة علماء النفس السود لم تكن تختلف جوهريا عن تلك الاستجابات التي تبديها قطاعات أخرى من البيض نحو الجهود السوداء المنظمة التي تستهدف تعديل أدوار اللعبة الاجتماعية."

لقد تركز تناولنا حتى الآن على علم النفس - أوبالأحرى على علمائه - في بريطانيا وفي الولايات المتحدة الأمريكية. وطالت وقفنا بالتحديد أمام الموقف في الولايات المتحدة الأمريكية وعلى أي حال فإن تركيزنا لم يكن محض صدفة على الإطلاق. بل لقد كان اختيارا مقصودا تما ما. إن لعلم النفس الأمريكي - فيما نرى - التأثير الأكبر على حركة واتجاهات علم النفس في أوروبا الغربية، وكذلك في الدول النامية بعامة، ومن ثم فإن أزمة علم النفس المعاصر كما تتضح في الولايات المتحدة الأمريكية تنعكس على تلك

الدول جميعا ولو بدرجات متفاوتة .أو بعبارة أخرى فإنها يمكن أن تعد تعبيراً عن أزمة عامة يعاني منها علم النفس المعاصر ككل وإن اختلفت مظاهر التعبير عنها وتباينت مستويات الوعي بها.

لقد مضى على " نشأة "علم النفس ما يكاد يقرب أو يتجاوز القرن من الزمان وأوصلته مسيرته إلى هذا الموقف المتأزم الذي عرضنا طرفاً من مظاهره المختلفة .تري إلى أين يمضي علم النفس؟ إن التأزم الحاضر لا بد وأن يدفعنا إلى إعادة النظر من جديد في مدى صحة البدايات الأولى، وفي مدى سلامة اختيار الطريق .فلعل العودة إلى الماضي تسهم في الكشف عن جذور الأزمة الراهنة .تري هل اختيار علم النفس الطريق الصحيح لمسيرته؟ هل التزم بالسير على هذا الطريق إذا ما كان صحيحاً؟

الفصل الثالث

فيلهم فونت

وعلم النفس البنائي

فيلهم فونت

وعلم النفس البنائي

محتويات الفصل :

حياه فونت

أول مختبر لعلم النفس

فونت و علم النفس البنائي

تعريف المدرسة البنائية

أهم مفاهيم المدرسة البنائية

لمحة تاريخية عن المدرسة البنائية

حياته

وُلد "فونت" في نيكاراو في بادن في ١٦ أغسطس ١٨٣٢، وهو الطفل الرابع للوالدين "ماكسيميليان فونت" وهو كاهن وزوجته "ماري فريدريك". ولد "فونت" في ألمانيا التي اعتبرت مستقرة اقتصاديا، ونشأ خلال فترة كانت فيها إعادة استثمار الثروة في التنمية التعليمية والطبية والتكنولوجية أمرا شائعا. حفز السعي الاقتصادي للنهوض بالمعرفة على تطوير طريقة جديدة للدراسة النفسية.

درس "فونت" من ١٨٥١ إلى ١٨٥٦ في جامعة توبنغن في جامعة هايدلبرغ وفي جامعة برلين. بعد تخرجه كدكتور في الطب من هايدلبرغ ١٨٥٦. كتب مساهمات في نظرية الإدراك الحسي (١٨٥٨-١٨٦٢). في عام ١٨٦٤ أصبح أستاذا مساعدا للأنثروبولوجيا وعلم النفس الطبي ونشر كتابا مدرسيا عن فسيولوجيا الإنسان. ومع ذلك فإن اهتمامه الرئيسي، وفقاً لمحاضراته وفصوله، لم يكن في المجال الطبي، بل كان أكثر انجذابا لعلم النفس والمواضيع ذات الصلة. نُشرت محاضراته عن علم النفس كمحاضرات في علم نفس الإنسان والحيوان في ١٨٦٣-١٨٦٤.

ضغط "فونت" نفسه لكتابة العمل الذي أصبح أحد أهم الأعمال في تاريخ علم النفس، "مبادئ علم النفس الفسيولوجي" في عام ١٨٧٤. وكان أول كتاب مدرسي يتعلق بمجال علم النفس التجريبي.

التقى "فونت" "صوفي ماو" (١٨٤٤-١٩١٢) بالقرب من هايدلبرغ في عام ١٨٦٧. تزوجا في ١٤ أغسطس ١٨٧٢ في كييل. للزوجين ثلاثة أطفال: إيانور التي أصبحت مساعدةً لأبيها بعدة طرق ولويس المدعوة ليلي وماكس وندت، الذي أصبح أستاذًا للفلسفة.

رُقي فونت إلى أستاذ الفلسفة الاستقرائية في زيورخ عام ١٨٧٥، أصبح أستاذًا للفلسفة في جامعة لايبزغ عام ١٨٧٥، حيث بدأ كل من إرنست هينريخ فيبير (١٧٩٥-١٨٧٨) وجوستاف ثيودور فخرنر (١٨٠١-١٨٨٧) بحثًا في علم النفس الحسي والفيزياء النفسية، إذ طور "غوتفريد فيلهلم ليبنيز" قبل قرنين من الزمن فلسفته وعلم النفس النظري مما أثر بشدة على نهج "فونت" الفكري. كان إعجاب "فونت" ب"إرنست هينريخ فيبير" واضحًا من مذكراته إذ أعلن أنه ينبغي اعتبار "فيبير والد" علم النفس التجريبي: «أود أن أسمى فيبير والد علم النفس التجريبي ... كان لفيبير مساهمة عظيمة في قياس الكميات النفسية ولإظهار العلاقات الدقيقة بينهم، ليكون أول من يفهم هذا وينفذه.

أول مختبر

افتتح "فونت" أول مختبر خُصص للدراسات النفسية في جامعة لايبزيغ عام ١٨٧٩، وشكل هذا الحدث الميلاد الرسمي لعلم النفس كحقل مستقل للدراسة. امتلأ المختبر الجديد بطلاب الدراسات العليا الذين أجروا أبحاثاً حول الموضوعات التي حددها "فونت"، وسرعان ما جذب العلماء الشباب من جميع أنحاء العالم الذين كانوا متلهفين للتعرف على العلوم الجديدة التي طورها فونت. خصصت جامعة لايبزيغ مختبر "فونت" عام ١٨٧٦ لتخزين المعدات التي يحضرها من زيوريخ. وقعت العديد من مظاهرات فونت في هذا المختبر الواقع في مبنى كونفيكت بسبب الانزعاج من نقل معداته بين المختبر وفصوله الدراسية. رتب فونت لبناء الأدوات المناسبة وجمع العديد من قطع المعدات مثل المناظير وكرونوسكوب ورقاص الساعة والأجهزة الكهربائية والمؤقت وأجهزة رسم الخرائط الحسية ومن المعروف أنه حددت اتفاقية لمختلف طلاب الدراسات العليا مع مهمة تطوير الاستخدامات للبحوث المستقبلية في التجريب. وجد ١٥ مساعداً بين ١٨٨٥ و١٩٠٩.

بدأ "فونت" عام ١٨٧٩ إجراء تجارب لم تكن جزء من برنامج عمله، وادعى أن هذه التجارب المستقلة رسخت شرعية مختبره كمختبر رسمي لعلم النفس، على الرغم من أن الجامعة لم تعترف رسمياً بالمبنى كجزء من الحرم الجامعي حتى عام ١٨٨٣. كبر المختبر الذي أصبح معروفاً بالمعهد النفسي وشمل ما مجموعه ١١ غرفة، ونُقل إلى مبنى جديد صممه "فونت" خصيصاً للبحث النفسي.

كان "فونت" مسؤولاً عن عدد استثنائي من رسائل الدكتوراه بين عامي ١٨٧٥ و١٩١٩: ١٨٤ طالب دكتوراه من بينهم ٧٠ أجنبياً (منهم ٢٣ من روسيا وبولندا ودول أخرى من أوروبا الشرقية و١٨ منهم من أمريكا). أصبح العديد من طلاب "فونت" علماء نفس بارزين. من بينهم: الألماني أوزوالد كولب (أستاذ بجامعة فورتسبورغ) وإرنست مومان (أستاذ في لايبزيغ وهامبورغ ورائد في علم النفس التربوي) وهوجو مونستريرغ أستاذ بجامعة فرايبورغ وجامعة هارفارد ورائد في علم النفس التطبيقي) وويلي هيلباتش (معروفة في ألمانيا بعلم النفس الثقافي).

من بين الأمريكيين المدرجين في القائمة جيمس مكين كاتيل (أول أستاذ في علم النفس في الولايات المتحدة) وجرانفيل ستانلي هول (والد حركة علم نفس الطفل والباحث النظري لتطور المراهقين ورئيس جامعة كلارك) وتشارلز هوبارد جود (مدير كلية التعليم في جامعة شيكاغو) ووالتر ديل سكوت (الذي ساهم في تطوير علم النفس الصناعي وتدرسه في جامعة هارفارد) وإدوارد برادفورد تيتشنر ولايتنر ويتمر (مؤسس أول عيادة نفسية في بلده) وفرانك أنجل وإدوارد ويلر سكريبشر وجيمس مارك بالدوين (أحد مؤسسي قسم علم النفس في جامعة برينستون والذي قدم مساهمات مهمة في بداية علم النفس والطب النفسي ونظرية التطور.

النظرية السلوكية

شكّلت النظرية السلوكية أساساً لدراسة سلوك الإنسان، الذي شغل علماء النفس لسنوات طويلة، حيث أنشأ "فيلهلم فونت" أول مختبر متخصص في دراسة علم النفس ونظرياته، بما فيها النظرية السلوكية، بعد أن لاحظ صعوبة دراسة العمليات العقلية بشكل موضوعي، مقارنةً مع إمكانية مراقبة وقياس السلوك البشري.

النظرية السلوكية هي إحدى النظريات الكبرى في علم النفس، التي تدرس السلوكيات الممكنة ملاحظتها بسهولة لدى الفرد، كما تسعى إلى دراسة وشرح السلوك البشري، من خلال تحليل الظروف التي عاشها الفرد، والنتائج المترتبة عليها في بيئته، والخبرة المكتسبة من تجاربه السابقة؛ والتي أدت إلى ظهور سلوكه الحالي.

ولم تتبنَّ النظرية السلوكية فكرة وجود دورٍ للوعي في سلوك الفرد، الموجودة في نظريتي الوظائفية والبنويوية، ورفضت المفاهيم التي وضعها الفيلسوف فرويد حول تأثيرات اللاشعور في تحديد السلوك رفضاً قاطعاً، بل أصرت على أن السلوك الملحوظ (الواعي)، هو فقط ما يجب دراسته؛ كونه يمكن مراقبته بشكلٍ موضوعيٍّ.

وفقاً للنظرية السلوكية، إن شخصية الفرد لا تتكون مع ولادته، إنما تأخذ شكلها من خلال مجموعة من السلوكيات المتتالية المرتبطة بالعوامل الخارجية في البيئة المحيطة به، إذ أن شخصية الطفل عند ولادته تكون كاللوح الفارغ؛ قبل أن تكتسب بعضاً من صفاتها بشكل تدريجي اعتماداً على ما تتلقاه من مُكتسبات. كذلك الأمر بالنسبة للإرادة؛ إذ تتأثر بالبيئة الخارجية المحيطة.

والجدير بالذكر أنه أشار عالم النفس الألماني "فيلهلم فونت" في كتابه "سيكولوجية الشعوب" إلى أن كثيراً من المفاهيم الدينية والشعرية قد أبدعها العقل البشري في ظروف خاصة، هي حالة الحلم والهلوسة المرضية.



فونت و علم النفس البنائي

تعريف المدرسة البنائية

تعتبر نظرية التعلم البنائية (أو التكوينية) من أهم النظريات التي أحدثت ثورة عميقة في الأدبيات التربوية الحديثة خصوصا مع جان بياجى ، الذي حاول انطلاقا من دراساته المتميزة في علم النفس الطفل النمائي أن يمدنا بعدة مبادئ ومفاهيم معرفية علمية وحديثة طورت الممارسة التربوية . كما أنه طبق النتائج المعرفية لعلم النفس النمائي ، ولمقاربة هذه النظرية البنائية في التعلم سنحاول أولا التعرف على أهم المفاهيم المركزية لها ، ثم أهم مبادئها ثانيا ،وبعد ذلك سنتعرف على الأبعاد التطبيقية لهذه النظرية .

أهم مفاهيم المدرسة البنائية

مفهوم التكيف : التعلم هو تكيف عضوية الفرد مع معطيات وخصائص المحيط المادي والاجتماعي عن طريق استماجها في مقولات وتحويلات وظيفية ، والتكيف هو غاية عملية الموازنة بين الجهاز العضوي ومختلف حالات الاضطراب واللاإنتظام الموضوعية أو المتوقعة والموجود في الواقع ، وذلك من خلال آليتي الاستيعاب والتلاؤم.

التلاؤم:

هو تغيير في استجابات الذات بعد استيعاب معطيات الموقف أو الموضوع باتجاه تحقيق التوازن ، وحيث إن الاستيعاب هو إدماج للموضوع في بنيات الذات ، والملاءمة هي تلاؤم الذات مع معطيات الموضوع الخارجي.

مفهوم الموازنة والضبط الذاتي : الضبط الذاتي هو نشاط الذات باتجاه تجاوز الاضطراب والتوازن هو غاية اتساقه.

مفهوم التمثل والوظيفة الرمزية:

التمثل، عند بياجيه، ما هو سوى الخريطة المعرفية التي يبنها الفكر عن عالم الناس و الأشياء .وذلك بواسطة الوظيفة الترميزية ، كاللغة والتقليد المميز واللعب الرمزي...والرمز يتحدد برابط التشابه بين الدال والمدلول؛ والتمثل هو إعادة بناء الموضوع في الفكر بعد أن يكون غائبا .

لمحة تاريخية عن المدرسة البنائية

1875-1930 هي مدرسة أسسها العالم النفسي فيلهيلم فونت والتي تعرّف علم النفس بأن وظيفته هو تحليل الخبرة الشعورية أو الوعي إلى عناصره الأساسية من أجل معرفة العلاقة بين هذه العناصر المختلفة، أي أن طريقة البحث هذه نفس الطريقة التي يستعملها الكيميائي أو الفيزيائي في فحص ماهية طبيعة مكونات الخبرة الشعورية مثل الأحاسيس والمشاعر والخيالات. وهكذا ركزت المدرسة البنائية على دراسة موضوع الحس والادراك في مجالات البصر والحس، ومن أجل ذلك استعملوا طريقة في البحث وهي الاستبطان والتي تعني التأصل/الملاحظة الذاتية لخبرة الفرد الذاتية. و من الانتقادات الموجهة:

١. الإنسان وهو منفعل لا يستطيع أن يصف الخبرة الشعورية بصورة

علمية.

٢. الطلاب الذين أجريت عليهم التجارب كانوا يتدربون على هذه التجارب

قبل أن تجري عليهم التجارب، مثلا كانوا يتعرضون لمثيرات سمعية (بأن

نسمعهم نغمات مختلفة)

يعتبر فونت مؤسس المدرسة البنائية في علم النفس. وبفضله استقل علم

النفس عن الفلسفة.

• اهتم بدراسة الوعي (الشعور) من وجهة نظر بنائية أو فيزيائية. ونعني

بكلمة بنائية هنا تحليل الكل إلى أجزائه أو عناصره المختلفة. وعلى هذا

الأساس فان اهتمام فونت كان منصبا على دراسة عناصر الخبرة الشعورية

وعلاقتها الميكانيكية بالجهاز العصبي.

يرى أن الوعي والتفكير والمعرفة هي مجموع هذه العناصر

ولتحديد عناصر ومكونات الخبرة الشعورية استخدم منهج التأمل الباطني.

ويفسر فونت عملية الفهم بأنها نشاط معرفي والتي تشمل التفكير للربط بين

المحتويات العقلية المدركات الحسية و المشاعر..

أسس معمله لهذا الغرض عام ١٨٧٩، ثم اصدر مجلة بعنوان الدراسات

الفلسفية عام ١٨٨١ لنشر نتائج أبحاثه.

يعتبر تكنر E. Tichener والذي عاش في الفترة بين ١٨٦٧ الى ١٩٢٧

من أهم تلامذته، وقد حاول جاهدا من خلال العديد من المنشورات و الأبحاث

نشر البنائية بالولايات المتحدة إلا أنها انتهت مع وفاته.

من أهم الأفكار التي أضافها تكرر إلى فكر فونت اعتقاده بضرورة ابتعاد
علما النفس عن دراسة ما بعد الظواهر الفيزيائية في علم النفس لتأثير ذلك
على تكامل العلم..

يفسر العمليات العقلية العليا Thoughts إجمالاً من منطلق بنائي، فيرى
أنها مجموعة أفكار ، وان هذه الأفكار تتكون من مجموعة من الصور الشعورية
-المدركات الحسية- أو الخيالات .

يفسر تكرر عملية الفهم والتفكير من خلال نظريته في "تقرير المعنى" و
التي تقول بأن معاني الأشياء تأتي من ارتباط الاحساسات بالمجال الذي تحدث
فيه، أو من خلال ترابطها بالاحساسات الأخرى السابقة .

حاول البعض تطوير الاتجاه ومنهم برنتانو Berentano الذي أسس علم
نفس الفعل Act Psychology حيث يعتبر دراسة عملية الأحداث الشعورية
في ارتباطها بالبيئة الخارجية موضوعاً لعلم النفس، وبمعنى آخر فان الفعل
النفسي يكون نتاج للعوامل الداخلية والخارجية .

وإجمالاً فإن المدرسة البنائية حاولت الربط بين الاتجاه الوضعي والحسي في كل من بريطاني وفرنسا بالاتجاه العقلي الألماني. حيث ركزوا على المدركات الحسية مع اعترافهم بالعمليات العقلية،

إلا أن تفسيرهم للعمليات العقلية لم يكن موفقاً إذ اعتبروه مجموعة لهذه المدركات (تفسير بنائي فيزيائي)، كما أن اعتمادهم على منهج التأمل الباطني ليس علمياً والمتأمل يتأثر بالذاتية. ونتيجة لكل هذه العيوب فقد انتهت المدرسة البنائية بموت تكنر.

للمدرسة البنائية عدة رواد و لعل أشهرهم مؤسسها فيلهيلم فونت و تلميذه تكنر . بالإضافة الى عالم النفس السويسري جان بياجيه

فيلهلم فونت :

عالم الماني يعتبر اكبر عالم فى تاريخ علم النفس. تتلمذ على يد ميللر وبعد ذلك درس الفسيولوجيا وبعدها الطب. اهتم بعلم الطبعه والكيمياء والطب التجريبي وبعد ذلك تحول اهتمامه للسيكولوجيا. اسس سنة ١٨٧٩ اول معمل تجريبي لعلم النفس. واسس مجله لنشر ابحاثه سنة ١٨٨١.

تكبر:

عاش في الفترة بين ١٨٦٧ إلى ١٩٢٧ من أهم تلامذة فيلهيلم فونت ، وقد حاول جاهدا من خلال العديد من المنشورات والأبحاث نشر البنائية بالولايات المتحدة إلا أنها انتهت مع وفاته.

جان بياجيه

جان بياجيه Jean Piaget : (ولد ٩ أغسطس) ١٨٩٦ - توفي ١٦ سبتمبر ١٩٨٠) كان عالم نفس وفيلسوف سويسري يشتهر بصياغته لنظرية تطور الإدراك. أنشأ بياجيه في عام 1965مركز نظرية المعرفة الوراثية في جنيف وترأسه حتى وفاته في عام ١٩٨٠. يعتبر بياجيه رائد المدرسة البنائية في علم النفس .

أساسيات المدرسة البنائية عند بياجيه:

. يرى أن ما ينظم نمو الذكاء هو نفس العمليات التي تحدد الشكل العام

للإنسان ، والتغيرات في فسيولوجية جميع الأنظمة الحية .

٢. يؤكد على الوصف الدقيق لمستويات الفهم أو مراحل التطور المعرفي

عند الأفراد حيث يحاول اقتفاء أثر انتقال الإنسان من مرحلة تطور معرفي

إلى مرحلة أخرى .

٣. من خلال مبادئ الموازنة يستطيع الإنسان أن يكون فهما أكثر دقة

للعالم من حوله ، وهذه هي مبادئ التعلم من وجه نظر بياجيه

٤ . النمو المعرفي حصيلة التفاعل بين عوامل النضج البيولوجي والبيئة

الطبيعية والاجتماعية والتوازن .

الفصل الرابع

علم النفس في مجتمع الصنائه

علم النفس في مجتمع الصناعة

محتويات الفصل :

الثورة الصناعية

تعريف علم النفس الصناعي

الادارة وتطور المجتمع

اسهامات تليور

علم النفس في مجتمع الصناعة

لقد كان ظهور العلوم الحديثة مرتبطاً أشد الارتباط بالثورة الصناعية وأزدهار النظام الرأسمالي، وكان القرن التاسع عشر مليء بالأحداث السياسية والاجتماعية التي غيرت وجه أوروبا والعالم كله، وبدأت أوروبا تجني ثمار ثورتها الصناعية تدريجياً في شكل تغيرات اجتماعية كبيرة، فبدأت ظاهرة التحضر معها تغير شكل المجتمع من الأسر الكبيرة إلى الأسر الصغيرة، من العيش في الريف إلى الزحف التدريجي إلى المدن.

فمع بزوغ فجر النهضة في البلدان الأوروبية ظهرت أفكار أكثر تحديداً وتركيزاً فيما يتعلق بقضايا الطبيعة والمجتمع عامة، وبموضوع النفس خاصة.

وقد أدى هذا التطور الجديد الذي طرأ على التجارة إلى أن تصبح الأسواق وسيلة سائدة لتنظيم عملية تبادل البضائع، وأضحت الأسواق تُنَسَّقُ أعمال وأنشطة مختلف المشاركين مما أتاح انتقال الموارد إلى الجهات التي يمكن أن تستغلها أفضل استغلال. ويُعدُّ العالم الاقتصادي والفيلسوف الأدبي آدم سميث من أبرز المفكرين الذين عاصروا هذه الفترة من الزمن. اقترح سميث في كتابه الرائع «ثروة الأمم» فكرة التخصص والتنسيق بين الشركات باعتبارها سبباً في النمو الاقتصادي. لذلك فإنَّ أبرز الإسهامات التي أضافها سميث للفكر

الإداري هي التخصص وتقسيم العمل. يُقصد بتقسيم العمل أنّ العامل يتخصّص في تنفيذ مهمة واحدة تقع ضمن سلسلة أكبر من المهام التي تؤدي في النهاية إلى الخروج بمنتجٍ معيّن.

لقد كان لفكرة التخصص العديد من النتائج المهمة والتي تتمثّل أولاً في تقليل تكلفة البضائع بدرجة كبيرة.

وثانياً في تقليل الحاجة إلى التدريب المكثّف، فبدلاً من تعليم العاملين إنجاز العديد من المهام في مجالات مختلفة أصبح العاملون يختصّون في تعلم جانب واحد فقط.

ثالثاً وأخيراً، زاد الاهتمام بالإدارة بسبب الحاجة إلى تنسيق جميع المهام المختلفة.

ولقد كان لاختراع الآلة البخارية دوراً كبيراً في تحسين نقل البضائع والمواد الخام، وقد قلّ تكاليف الإنتاج والنقل ممّا أدّى إلى تقليل الأسعار ووصول البضائع إلى أسواق أبعد، وبعدهُ اختراع الآلة البخارية من العوامل المهمة الأخرى التي أسهمت في نشوء الثورة الصناعية التي حدثت بين عام ١٧٩٠ وعام ١٩٠٠.

و لقد شهدت الثورة الصناعية نشوء الشركات الحديثة التي يتخصَّص فيها العاملون بالعمل في مجال معيَّن والتي تُنظَّم من قِبَل المديرين.

لم يكن هناك توحيد لمقاييس المنتجات والخدمات قبل الثورة الصناعية وكانت تُنتج في البيوت بكميات قليلة، ولكنَّ الثورة الصناعية أدَّت إلى تحوُّل الإنتاج من الإنتاج المنزلي المُتواضع الذي تديره الأسرة إلى الإنتاج الهائل في المصانع والمعامل.

و يمكن لهذه المصانع أن توظِّف مئات وحتى الآلاف من العمَّال الذين ينتجون كميات كبيرة من البضائع ذات المواصفات الموحَّدة بسعر أرخص من سعر تلك المنتجة في البيوت.

وتتراوح أحجام المصانع من مساحاتٍ صغيرة تمثِّل جُزءًا من مدينة إلى مصانع هائلة بمساحاتٍ مدنٍ بأكملها مثل مدينة لوويل الصناعية التي تقع في ولاية ماساتشوستس في الولايات المتحدة الأمريكية وتتكوَّن بشكلٍ أساسي من مصانع النسيج، وتحوَّلت المصانع الصغيرة إلى مصانع كبيرة مع تقدُّم الثورة الصناعية. في عام ١٨٤٩ وظَّفت شركة هارفستر العالمية الموجودة في شيكاغو ١٢٣ عاملاً وكانت تُعدُّ أكبر مصنع في الولايات المتحدة آنذاك، وكان لدى مصنع شركة ماكورميك (وهي شركة أمريكية مُتخصِّصة ببيع التوابل

والمنكّهات) في منتصف القرن التاسع عشر ٢٥٠ عاملاً كانوا يحصدون التوابل
٢٥٠٠ مرة في السنة الواحدة وبنّت شركة ماكروميك بعد حريق شيكاغو العظيم
مصنّعاً جديداً شغّل ٨٠٠ عاملاً ووصلت مبيعاته إلى أكثر من مليون دولار.
أمّا مصنع هنري فورد، فقد بلغ عدد موظّفيه عام ١٩١٣ حوالي ١٢٠٠٠
عاملاً. وفُرت المصانع فرصاً لتحقيق رضا العاملين عندما زاد حجمها. على
سبيل المثال، لم يكن مصنع هوثورن الموجود في ولاية إلينوي في الولايات
المتحدة الأمريكية مكاناً للعمل فحسب؛ بل كان يتميّز أيضاً بوجود فرق رياضية
وغيرها من المظاهر والنشاطات الاجتماعية.

انتقلت الثورة الصناعية من أوروبا إلى مختلف أنحاء العالم ووصلت أخيراً
إلى الولايات المتحدة التي بدأت تشهد العديد من الثورات الصناعيّة البارزة لا
سيّما في مجال النقل والاتصالات والأسواق من عشرينيات القرن التاسع عشر
حتى ستينيات القرن نفسه.

تضمّنت ثورة النقل بناء القنوات والسكك الحديدية التي جمعت شتات القارّة
وربطت بين أجزائها المختلفة. أمّا اختراع التلغراف، فقد أدّى إلى زيادة سرعة
الاتصالات بين الأنحاء المختلفة في الولايات المتحدة، إذ أصبح من الممكن
انتقال المعلومات بين مدينتي نيويورك وبوسطن في غضون دقائق، بينما كان

يستغرق الأمر عدة أسابيع سابقاً. شهدت الولايات المتحدة أيضاً ظهور ثورة كبيرة في عالم الإنتاج والتسويق، فقد كان اقتصاد الولايات المتحدة يعتمد قبل ظهورها على المزارعين الذين ينتجون البضائع محلياً وبكميات قليلة. ولكن في عام ١٨٣٠ وبعد ظهور القروض المُيسرة وتحسّن وسائل النقل انطلقت ثورة واسعة في مجال التسويق والتجارة، وقد أدّى هذا إلى وجود مجموعة كبيرة من الشركات التي تحتاج إلى مديرين يتولّون تنسيق شؤونها.

فكانت الحاجة الي علم يقوم بدراسة ذلك ، فاتي فرع من فروع علم النفس التطبيقيه وهو علم النفس الصناعي .

وهو العلم الذي يتعامل مع السلوك البشري في مجال الصناعة وهو العلم الذي يقوم بتطبيق المعرفة السيكولوجية في مجال الصناعة سواء فيها يتعلق بنشاط الكائن البشري وعلاقة هذا النشاط بالآلة أو علاقة هذا النشاط بزملاء العمل أو فيما يتعلق بالتفاعل الداخلي بين قدرات الشخص وميوله واتجاهاته ، وبنائه النفسي علي وجه العموم وعلاقة ذلك كله بتوافقه المهني ورضاء العامل وتعرضه للحوادث وروحه المعنوية وتفوقه في عمله أو إخفاقه فيه وطموحه إلى الترقى أو الإنجاز...الخ

وتدور التعريفات المختلفة لعلم النفس الصناعي حول محور واحد هو دراسة الإنسان في العمل. ومعنى هذا هو الدراسة العلمية للإنسان، وما ينتظم شخصيته من مكونات عقلية، ومزاجية، وحركية، واجتماعية، وجسمية. وذلك في مجال العمل كمجموعة بين أساليب الأداء المتكاملة.

وعلم النفس الصناعي في هذه الحالة. إنما يحاول الكشف عن المكونات الأساسية لكل أسلوب من أساليب الأداء. أو كل عمل من الأعمال. وعلى نسق التوافق بين امكانات العمل ومتطلبات المهنة. ويمكن أن نصل إلى ما يستهدفه علم النفس الصناعي في رفع الكفاية الإنتاجية للعامل والمصنع. أو الوحدات الإنتاجية في العمل.

تعريف علم النفس الصناعي

يعرف الأستاذ الدكتور أحمد عزت راجح . علم النفس الصناعي بأنه فرع تطبيقي من فرع علم النفس. يستهدف رفع الكفاية الإنتاجية للعامل أو الجماعة. عن طريق حل المشكلات الموجودة في ميدان الصناعة حلاً علمياً وإنسانياً. ويحرص على راحة العامل وكرامته كحرصه على زيادة الإنتاج.

-ويعرف انجلش. وانجلش ١٩٥٨ أن علم النفس الصناعي هو البحث العلمي لمشاكل الصناعة بواسطة مناهج ومفاهيم ومبادئ علم النفس، والاستفادة من نتائجه بفعالية أكثر ويستكمل انجلش تعريفه، بأن علم النفس هو مفهوم الصناعة ويمتد نشاط علم النفس الصناعي من الاختبار الشخصي للتدريب وللتوظيف، والروح المعنوية، والهندسة البشرية. وسيكولوجية التسويق، والبيع وكذلك مع اتجاهات المستهلكين.

وان علم النفس الصناعي يهتم بتطبيق مبادئ علم النفس في حل المشكلات المتعلقة بالعمل ومشكلات العمل والإدارة والإنتاجية والتعيين والفصل وتعتبر جميعها موضوعات تدرج في ثنايا علم النفس الصناعي.

وهناك تعريفات تركز على تحديد مجالات البحث في علم النفس الصناعي في جمع البحوث وتقديم المشورة، وتطوير البرامج وزيادة الكفاءة الانتاجية. والشعور بالرضا ورفع الروح المعنوية للعمال.

ونجد أن علم النفس الصناعي فرع تطبيقي من فروع علم النفس. والفروع التطبيقية إنما تهدف إلى حل مشاكل المجتمع. في مجالاته المختلفة في المصنع والوحدة الانتاجية والمدرسة والجامعة والمؤسسات التجارية. ويلاحظ أن المشكلات المتعلقة بالعمل ومشكلات العمال والإدارة والإنتاجية كماً ونوعاً وجودة وكذلك مشكلات العلاقات الإنسانية التي تسود بين العمال والعمل والإدارة والمصنع والمشرفين، وكذلك مشكلات الآلة والعمال وقدرته، والهدف الذي يرمي اليه علم النفس الصناعي هو زيادة انتاجية العامل وجودته. وتطوير البرامج المهنية المختلفة التي تكفل زيادة الكفاءة الإنتاجية مع توفير الشعور بالرضا والسعادة ورفع الروح المعنوية لهم. ويساعد علم النفس الصناعي على تصميم المنتجات وتصنيعها وتوزيعها وتحسين ظروف العمل.

وكذلك تصميم الآلات وتحسين بيئة العمل. وتميز اسلوب استخدام العمال للآلات وتغيير أماكن العمل ويشمل تصميم وتقويم أساليب التدريب والبرامج

والنظم المختلفة في المجالات المالية المختلفة. ويمكننا أن نلخص ان مجالات علم النفس الصناعي تتم في ثلاثة مجالات:

(١) الموائمة المهنية

(٢) تكيف العامل لمهنته

(٣) وضع الرجل المناسب في المكان المناسب مع إمكاناته وقدراته وسمات شخصيته.

كما يسفر عن ذلك في الهندسة البشرية. وتتضمن تكيف الآلة للعامل وكذلك العلاقات الإنسانية بين العمال بعضهم ببعض.

وبين مشرفين والإدارة العليا فهذه المجالات الثلاثة التي يدور عليها علم النفس الصناعي في دراسته. وإن علم النفس الصناعي يعتبر فرع من فروع علم النفس العام ويطبق مختلف النتائج والمكتشفات التي توصل اليها علم النفس وذلك لفهم المشكلات التي تظهر في الميدان، والسعي إلى حلها حلاً علمياً وإنسانياً، و لرفع الكفاية الانتاجية وتحقيق سعادة العامل ورضاه.

ولقد كان علم النفس الصناعي قبل السبعينات يهتم في المقام الأول بمجالات العمل والانتاج في المصانع ولكنه اصبح فيما بعد يسمى بعلم النفس التنظيمي، وذلك توسيعاً لمجال اختصاصه ودائرة اهتمامه وموضوعاته وبحثه

فأصبح يشمل بالدراسة أي تنظيم سواء أكان تنظيمًا رسمياً أم غير رسمي،
فأصبح يدعى علم النفس الصناعي والتنظيمي.

ويعرف علم النفس الصناعي باستخدام المنهج العلمي. في دراسة عملية
التفاعل بين الفرد والجوانب المتنوعة لبيئة العمل يعمل فيها بهدف التوصل إلى
القوانين التي تحكم التفاعل وتوظيفها على المستوى التطبيقي.

ليس ذلك فحسب بل أن هذا النوع التطبيقي من فروع علم النفس، يمكن
أن يمد الفروع الأساسية من العلم ببعض مكتشفاته من خلال الممارسة اليومية
في مجال الصناعة - ومن ثم تكون المساهمة الفعلية في إثراء المعرفة
السيكولوجية.

حتى الآن فإنه يتوجه أساسا إلي الإنسان في المصنع عبر عدد من الأبعاد وربما كان من أهم الموضوعات التي توجه إليها هذا الاهتمام.

(١) الإشراف وأبعاده النفسية والاجتماعية والفنية والإدارية.

(٢) القيادة. وما يرتبط بها من سياسات التحذير والحزم وعلاقات الإنتاج.

(٣) التفاعل بين الجماعات في المجال المهني، وما يمكن أن يسفر عنه من أنماط سلوكية مؤثرة في العمل.

(٤) التنظيم والإدارة. وما يترتب على استخدام أسلوب معين علي علاقات

العمل والروح والمعنوية للعاملين وعلاقة كل ذلك بعملية الإنتاج.

(٥) الهندسة البشرية وهي تهتم أساسا بدراسة الكفاءة البشرية لدي الإنسان

العامل. وهي تحاول أن تطوع الآلة للإنسان بدلا من تطويع الإنسان للآلة.

ونجد أن صلة علم النفس الصناعي بفروع علم النفس الأخرى حيث يعتمد

علم النفس الصناعي على ما أضافته أغلب فروع علم النفس الأخرى - النظرية

والتطبيقية - من كشوف ومعلومات. حيث يستفيد من علم النفس الفارق الذي

يدرس ما بين الأفراد أو الجماعات من فروق في الذكاء والاستعداد

والشخصية... ذلك أن الأساس السيكولوجي لعمليات التوجيه والاختيار والتأهيل

والتدريب المهني يقوم علي مراعاة ما بين الأفراد من فوارق مختلفة حتى يمكن

وضع الشخص المناسب في المكان المناسب. والفروق الفردية التي تهتمنا في مجال الصناعة كثيرة متنوعة من أهمها : الفروق في الذكاء والمواهب الخاصة والحيوية الجسمية والاتزان الانفعالي والإفادة من التدريب والقابلية للتعب والتعرض لحوادث العمل والصلاحية لقيادة الجماعات العامة... كما يفيد من علم النفس التعليمي في عملية التدريب بوجه خاص، سواء كان هذا التدريب صناعياً أم إدارياً، يدوياً كان أم اجتماعياً. ذلك أن التدريب عملية تعلم وتعليم. وعلم النفس التعليمي يبين لنا طرق التعلم الاقتصادية والشروط التعلم الجيد والعوامل التي تسهل التدريب وتعطله، وأثر الدوافع والبواعث والثواب والعقاب والتعب وفترات الراحة في سير التدريب والإنتاج بوجه عام .

كما أنه يفيد أخصائي التدريب في تخطيط برامج التدريب وتقييمها، وأفضل طرق الإرشاد أثناء التدريب. وعلم النفس الاجتماعي من الفروع التي لا بد أن يحيط بها كل مهتم بالعلاقات الإنسانية في مجال الصناعة. إذ هو يبين لنا العوامل التي تسهل العمل الجماعي أو تعطله، وطرق تحسين العلاقات الإنسانية بين الجماعات العامة في المصنع أو الشركة بما يزيد من تماسكها ويرفع من روحها المعنوية وإنتاجها. والشروط التي يجب أن تتوفر في قائد الجماعة بوصفه أخطر ((عامل)) في البيئة النفسية للعمل.

وكل من علم النفس الاكلينيكي وعلم نفس الشواذ في تشخيص مختلف ضروب الاضطرابات النفسية والسلوكية في مجال الصناعة : العامل المشكل والمدير المشكل والعامل المكثّر من الحوادث العمل أو المسرف في الشكاوي أو المتغيب هذا إلى ظاهرة الصرع الصناعي، والأمراض النفسية المهنية، وكذلك الأمراض الجسمية النفسية المنشأ الشائعة بين صفوف العاملين ثم يختارن أنسب طرق الإرشاد النفسي أو العلاج النفسي لكل حالة. والأخصائي في علم النفس الصناعي في حاجة ماسة إلى استخدام مقاييس واختبارات سيكولوجية ثابتة وصادقة في تقدير الذكاء والقدرات الخاصة والميول والاتزان الانفعالي والكفاية الإنتاجية.... وكل تلك ضرورية في تحليل الأعمال المهنية لمعرفة ما يتطلبه النجاح فيها من قدرات وسمات مختلفة، وكذلك في تصنيف المهن

المختلفة وتقييمها وتحديد الأجور، فضلا عن سبر الروح المعنوية للعاملين،
ومدي تماسك الجماعة العاملة، واستبعاد العمال المشكلين والمستهدفين لحوادث
العمل.

وبإتي سؤال كيف يمكن تحفيز العاملين على سبيل المثال؟ عندما كانت

الأُسْر تدير العمل، كان من السهل جدًّا تحفيز العاملين بسبب حقيقة أنَّ الأسرة قد لا تبقى على قيد الحياة إذا لم ينتج أفرادها شيئًا. لكنَّ الأمر كان مختلف في المصانع، إذ يمكن للعاملين تجنبُّ العمل أو حتى تحطيم الآلات إذا لم تعجبهم أفكار الإدارة لديهم وقد كان كل عامل يعمل العمل بطريقة مختلفة عن غيره، ويبدو أنَّ إنتقاء العاملين وتوظيفهم كان يحدث بصرف النظر عمَّا إذا كانوا مناسبين للعمل أم لا، كما كانت الإدارة تبدو متقلِّبة الآراء، ولم تكن معدَّات وأدوات وأساليب الإنتاج موحَّدة بشكلٍ كامل.

لم تضع الإدارات بشكلٍ عام سقفًا معيَّنًا لكمية الإنتاج المطلوبة وهذا بدوره جعل كميَّة وآليَّة الإنتاج ذاتها مُبهِمة لكلِّ من المديرين والموظَّفين. فقد كان العاملون يعتقدون بأنَّ الإدارة تحدِّد ما ينبغي إنتاجه عشوائيًا، كما كانوا يعتقدون بأنَّهم لو أنتجوا كميات كبيرة فإنَّ الإدارة سوف تستغني عن العاملين لأنَّهم كانوا يعتقدون بأنَّ هناك مقدار محدود من العمل في العالم. كان العاملون المسؤولون يتحكمون بكمية الإنتاج عن طريق معاقبة أولئك الذين ينتجون كميات كبيرة.

على سبيل المثال، إذا أنتج أحد العاملين كمية كبيرة، فإنَّ أدواته سوف تتعرَّض للتلف والاهتراء بسرعة أو أن زملاءه قد يُعاملونه بطريقة سلبية. كانت

طرق الإنتاج عشوائية أيضاً. على سبيل المثال، إذا أردت تعلّم كيفية جرف الفحم أو قطع الحديد، فإنّك ستتعلم عدة طرق للقيام بذلك وهذا لا يزيد من الكفاءة (لأن طريقة معيارية موحّدة لإنجاز العمل ستكون أكثر فعالية من الطرق المتنوّعة). نظراً لعدم الكفاءة الإدارية، حتّى العديد من المجدّدين في مجال الهندسة على أن تصبح الإدارة علماً قائماً بذاته حتى يكون هناك منهج يتحدّث عن كيفية أداء العمل بشكل واضح. على الرغم من أنّ هذه الفترة شهدت تطوّرات هائلة في مجال التكنولوجيا، إلّا أنّ مجال الإدارة كان متخلفاً عن نظرائه من العلوم الأخرى ..

ونتسأل هنا ما التأثيرات التي أحدثها فريدريك وينسلو تايلور على نظرية الإدارة؟ وكيف أثّرت الكفاءة في الإدارة على نظرية الإدارة الحالية؟ صاحبت الاضطرابات الاقتصادية التي نتجت عن الثورة الصناعية اضطرابات اجتماعية هائلة، وكان لدى الطبقات المهنية (المحامين، الإداريين، الأطباء) العديد من الهواجس، إذ كان من المحتمل إنشاء طبقة دنيا من العاملين الذين لم يحصلوا على تعليم جيّد والذين يكافحون من أجل كسب لقمة العيش.

وشعر العديد من المُصلحين أنّ العمّال قد يتطرّفوا ويحاولوا بقوة تحسين ظروف عملهم وأجورهم وغيرها، ومن ثمّ تتزعزع الحالة الراهنة لأسواق القوى العاملة ممّا يؤدي إلى الإضرابات وأعمال الشغب والعنف. كان هناك أيضًا تخوُّف من أنّ المال والنفوذ وضغط الشركات الكبيرة قد تؤثر في المجرى السياسي وتسيطر على إرادة الشعب.

كان لدى الطبقات العاملة العديد من الهواجس بشأن عملهم، و-كما ذكرنا سابقاً- كان هناك خوف كبير من أنّ العمل سيختفي بسبب الزيادة في الإنتاج. كان هناك أيضًا هواجس متعلّقة بالأجور ومدة البقاء في الوظيفة والعدالة في أماكن العمل. كما أن التخصص في العمل لم يكن واضحًا للعمال (أي أن العامل لا يعلم حق العلم ماهية وظيفته بالضبط، فهو يعمل على عدّة أصعدة وبطرقٍ مُختلفة). عندما كان فرانك جيلبريث يتدرّب لكي يصبح بنّاءً عام ١٨٨٥، لاحظ أنّه تعلّم ثلاث طرق لوضع الطوب على الرغم من أنّه لم تكن هناك حاجة لأكثر من طريقة واحدة.

ولقد كان الاهتمام قليلاً في الصحة الجسدية والنفسية للعاملين في المصانع، ولم تكن هناك استراحات. كان هناك أيضًا خلاف شديد بين الإدارة والقوى العاملة، إذ كانت الإدارة تحدّد معدل العمل المتوقع في اليوم ولكن كان

رد فعل العاملين هو الاتحاد معاً من أجل الحد من الإنتاج، ولذلك كان من المتوقع أن يتعرّض العاملون الذين ينتجون كميات أكثر أو أقل لإتلاف أدواتهم أو للإيذاء البدني. كانت الحوافز التي تقدّمها الإدارة قليلة جداً، وكان المديرون يستخدمون العقاب البدني وغيره من العقوبات عندما كانوا يريدون دفع العاملين إلى العمل، ولم تكن هناك أسباب تدفع أي من الجهتين إلى الثقة بالجهة الأخرى أو التعاون معها..

وما لبثت أن تضاعفت المشاكل الإدارية مع تزايد الطلب على المديرين وقلة عدد المُختصّين المؤهلين منهم بسبب ضعف التدريب والتأهيل الإداري عموماً. كانت معظم الشركات قبل الثورة الصناعية في يد أسرة أو صاحب امدير واحد. نظراً لتزايد حجم الشركات وتعقّدها ونظراً لاتساع دائرة تبادل البضائع، لم يستطع رجال الأعمال المهيمنون السيطرة على اتّساع مؤسّساتهم لأنهم افنقروا إلى الخبرة التي تمكّنهم من إدارة شركات ضخمة جغرافياً ومالياً. لقد كان التدريب والتعليم الإداري قليلاً، ولم يكن هناك مجالات علمية - . مجلة أكاديمية الإدارة - أو مجالات متخصصة مثل مجلة هارفارد كان تعليم إدارة الأعمال في ذلك الوقت يقتصر على حصص دراسية تُدرّس فيها أعمال السكرتارية. كانت المجالات ذات الصلة مثل علم النفس وعلم

الاجتماع في بداية طريقها ولم تكن واضحة المعالم كما هي في وقتنا الحاضر،
وكان أي تعليم إداري يُدرّس غالبًا من دروس التاريخ والأدب، وقد كان هذا
التعليم سرديًا وغير منهجيًا على الرغم من أنه كان هناك العديد من الأمثلة
على الإدارة الجيدة والإدارة السيئة..

بدأت المرحلة الثانية من الثورة الصناعية عندما أصبحت الإدارة علمًا قائمًا بذاته، ولم يكن ميلاد الإدارة في بريطانيا العظمى؛ بل كان في الولايات المتحدة. ووفقًا للمعلم والمستشار الإداري بيتر دراكر، فإنَّ تطوُّر الإدارة من إسهامات الولايات المتحدة الأساسية للعالم إلى جانب إعلان الاستقلال. تزامن تأسيس علم الإدارة المُستقل مع تطوُّر كلِّ من علم الاجتماع وعلم النفس وازدياد الطابع العلمي والرسمي للدراسات التاريخية والاقتصادية. أصبحت الإدارة أيضًا ذات طابع رسمي باعتبارها مجالًا دراسيًا قائمًا على الأسس والطُّرق العلميَّة، وقد ذكر دراكر أنَّ تطوُّر الإدارة كان من العوامل التي أوقفت تطوُّر الراديكالية (مذهب الأحرار المُتطرِّفين) في الولايات المتحدة لأنَّ ذلك أدَّى إلى زيادة الإنتاج وتقليل الأسعار وزيادة أجور العاملين. لقد رفع النجاح الذي حقَّقه الإدارة العلمية العاملين إلى الطبقة الوسطى، وقد نُسب هذا التطوُّر المهم إلى شخص واحد على وجه الخصوص وهو: **فريدريك وينسلو تايلور**.

يُطلق على فريدريك وينسلو تايلور (١٨٥٦-١٩١٥) لقب أبو الإدارة العلمية، وقد وُلد في ولاية بنسلفانيا وكان يخطِّط في البداية أن يدرس في جامعة هارفارد ويصبح محاميًا أو مسؤولًا تنفيذيًا، ولكنَّه عانى من إصابة في العين منعه من القراءة، ومن ثمَّ لم يعد الذهاب إلى جامعة هارفارد خيارًا متاحًا، لذلك

ذهب إلى العمل في مصنع أحد أصدقاء عائلته، وهو مصنع ميدفيل ستيل. اعتاد تايلور على العمل وتزقي بسرعة من عامل بسيط إلى رئيس عمال ثم إلى كبير المهندسين، وقد شهد خلال هذه الفترة العديد من الأعمال التي هدفت إلى الحد من الإنتاج أو تقليله -من ضمنها إتلاف أدواته-، وهو الذي وضع مصطلح التهرّب من العمل لوصف هذه الأعمال المتعمّدة. قرّر تايلور اتخاذ إجراءات بدلاً من الوقوف مكتوف الأيدي ورؤية هذه الأفعال الطائشة تؤثر على عمله، إذ ذهب أولاً إلى معهد ستيفنز للتقنية لكي يحصل على فكرة عامة عن الهندسة ثم استغلّ هذه المعرفة وطبّقها على عمله.

وتجدر الإشارة إلى أن تايلور لم يكن مفكراً مبتكراً، إذ أن معظم أفكاره كانت نابعة من مفكرين آخرين وخصوصاً الإنكليزي تشارلز بابيج (١٧٩١-١٨٧١). كان الإسهام الذي قدمه تايلور هو تطوير نظام إدارة كامل عن طريق دمج أفكار وفلسفات الآخرين، وعلى الرغم من أنه قد لا يكون مبتكر الدراسة العلمية للإدارة، إلا أنه ساهم في استخدام الإدارة وتكوينها من خلال الارتقاء بعدة نقاط إدارية مهمة مثل تقسيم وقت العمل ودراسته وتقسيم العمل بناء على المهام وأنظمة مراقبة التكاليف والتعليمات المكتوبة للعاملين والتخطيط والمعدات الموحدة. لا يزال منهج تايلور يُعدُّ أساس الإدارة الحديثة وقد تطرَّق في أعماله أيضاً، بالإضافة لما سبق، إلى مفهوم الحوافز.

فقد ذكر تايلور على سبيل المثال ما يُعرف بالإنتاج بالقطعة لتوضيح فكرة الحوافز، والتوضيح بالقطعة يعني أن العاملين يتقاضون أجورهم مقابل كمية إنتاجهم. كما وعرَّج تايلور أيضاً على فكرة نظام الأجر المتفاوت، والذي يُشير إلى أن العاملين سيحصلون على أجر أكبر إذا زادت كمية إنتاجيتهم عن كمية معينة. بالإضافة إلى ذلك، فقد ذُكرت بعض أنظمة التعويضات مثل عمولة المبيعات (أي أن يبنى الأجر المدفوع إلى العامل على مقدار ما يبيعه) في منهج تايلور ومؤلفاته أيضاً.

إنَّ الإسهام الرئيسي الذي قدّمه تايلور هو تقديره للمعرفة والعلم أكثر من التقاليد والأمور المجريّة أو المتعارف عليها، وقد قسّم كل عمل من أعمال الإنتاج إلى أجزاء وخطوات صغيرة وراقب أفضل العاملين وهم يؤدّون أعمالهم. حدّد تايلور أكثر الطرق فاعلية وكفاءة لإنجاز المهام باستخدام ساعة توقيتية لقياس الزمن الذي يستغرقه العاملون في القيام بالأعمال، ثمّ أعاد ترتيب الأعمال بالطريقة التي ينبغي القيام بها بعد تجزئة كل عمل إلى المراحل الأساسيّة له. طوّر تايلور أيضًا دراسات إدارة الوقت لتقسيم ساعات العمل الخاصة بالفرد إلى سلسلة من الأنشطة، وقد قاس الوقت المُستغرق في تنفيذ كل عمل ليعرف الطريقة الأسرع. كان يعدّل طبيعة إنجاز العمل باستخدام الطرق الأكثر كفاءة ثمّ يدرب العاملين على تنفيذ أعمالهم وفق هذه الطرُق الفعّالة. أتاح تايلور للعاملين الحصول على فترات استراحة خلال اليوم، وبذلك استطاع أن يجعل العاملين يُنجزون أعمالهم بطريقة أسرع وأفضل دون أن يشعروا بالتعب. يعدُّ «مفهوم العمل من الدرجة الأولى» من الإسهامات المهمة الأخرى التي أضافها تايلور إلى مهنة الإدارة. عندما وضع تايلور هذا المفهوم، كان يفكّر في أنّ على العاملين القيام بأكبر قدر ممكن من العمل الذي يستطيعون القيام به بدنيًا وعقليًا. كان الأشخاص غير القادرين بدنيًا أو عقليًا على مجاراة متطلّبات الإنتاج والعمل يرسلون إلى أماكن أخرى في المصنع

حيث يستطيعون فيها العمل بأقصى درجة من الفعالية. لم يكن العمل من
الدرجة الأولى معتمداً على الجهد البدني أو نشاط واندفاع العامل؛ بل على ما
هو من المتوقع أن يكون العامل قادراً على القيام به في مكانه ذلك.

الفصل الخامس

علم النفس والانحياز الاجتماعي

علم النفس والانحياز الاجتماعي

محتويات الفصل:

الانحياز الاجتماعي

أهم الصعوبات المتعلقة بمناهج البحث في علم النفس

الصعوبات المتعلقة بالموضوع

الصعوبات المتعلقة بمناهج البحث

علم النفس والانحياز الاجتماعي

يعتبر علم النفس من العلوم الإنسانية التي كانت سابقاً ضمن العلوم الفلسفية حتى القرن التاسع عشر. ومرت مفاهيم علم النفس بالعديد من المراحل حيث بدأ بدراسة النفس أو الروح، ثم انتقل إلى مرحلة دراسة التصرفات والظواهر السلوكية الخارجية، ومنها إلى دراسة اللاشعور وتحليل النفس البشرية، وأخيراً مرحلة العقل أو معالجة العمليات المعرفية. وبذلك اعتُبر علم النفس أنه العلم الذي يهتم بدراسة السلوكيات، والحالات النفسية، والشعور، واللاشعور، كما أنه عُنِيَ بدراسة وتصنيف السلوكيات السوية، وغير السوية المرضية، بالإضافة إلى دراسة عمليات معالجة المعلومات من العمليات العقلية والمعرفية التي تعمل على اكتساب المعرفة، وتخزينها، وإدراكها، وآلية استرجاعها. وقد اعتمد علماء النفس في دراستهم للنفس البشرية وسلوكياتها على مناهج بحثية كمية وأخرى كيفية.

ويؤثر علم النفس ويتأثر بالعلوم والتخصصات المعرفية والإنسانية المختلفة،
فمثلاً ظهرت علاقته بعلم الاجتماع في إطار ما يُسمّى بعلم النفس الاجتماعي
والذي يدرس أنماط العلاقات المتبادلة بين الأفراد داخل نطاق جماعة صغيرة أو
مجتمع كلي.

ف نجد أن للتخصص العلمي قدسية ورهبة تصد عنه العامة وتكاد تغلقه على
أهل الاختصاص. ورغم ما تثيره تلك الواقعة من جدل حول مبررات ذلك السياج
ومعقوليته بل وشرعيته أيضاً، إلا أن كل ذلك لا يقلل من كون تلك الواقعة
حقيقية وقائمة بالفعل، فالعامة حيال كل علم متخصص يكاد ينتظمهم موقف
موحد مؤداه أن القول الفصل في قضايا ذلك العلم مقصور على المتخصصين
فيه، ومن الجانب المقابل، فإن أهل الاختصاص بالنسبة لكل علم يكاد ينتظمهم
نفس الموقف أيضاً فهم يغلقون الباب على قضايا تخصصهم، ولا يفتحونه إلا
بمقدار، ولمن أوتى قدرًا معلوماً - يحددونه هم - من المعرفة والخبرة في مجال
تخصصهم، ولقد ارتضى الجانبان - العامة وأهل الاختصاص - لأنفسهم هذا
الموقف في العديد من مختلف مجالات التخصص العلمي، حتى أن صفة
«عدم التخصص» كادت تصبح تهمة تحرم صاحبها حق المشاركة في تناول
ما يسمى بالقضايا المتخصصة، بل إنها أصبحت تسقط عن تناوله - إذا ما
كان قد تم بالفعل - كل ما قد يكون لذلك التناول من قيمة بل ومن شرعية

أيضاً. ولا شك أن لهذا الموقف مبرراً موضوعياً وهو ازدياد التخصصات العلمية عدداً وعمقا بحيث لم يعد في وسع أهل اختصاص معين إلا أن يكونوا ضمن العامة حيال التخصصات الأخرى. ولكن لاشك كذلك في أن هذا الموقف المبرر موضوعياً قد استغل في كثير من الأحيان استغلالاً لا يمت للموضوعية بصلة؛ خاصة في مجالى علم النفس، والدين. استغله البعض لإبعاد الجماهير عن مناقشة ما يهمها ويمس حياتها من قضايا بتغليب تلك القضايا بصفة التخصص وبالتالي حرمان الجماهير «غير المتخصصة» من مناقشتها، واستغله البعض الآخر في تشويه واجتزاء الكثير من القضايا المتخصصة بحجة تبسيطها لغير المتخصص.

وعلى أى حال فإن مناقشة هذا الموقف بأبعاده المختلفة ليست رغم أهميتها موضوعنا في هذا المقام، بل إن ما يعنينا هو أن ذلك الاتساق والتكامل اللذين نلاحظهما في العلاقة بين موقف العامة وأهل الاختصاص حيال الكثير من مجالات التخصص العلمي، نفتقدهما بشكل يكاد يكون صارخاً بالنسبة لما يتعلق بالدين وبالعلوم الإنسانية بعامة وبالنسبة لعلم النفس بوجه خاص. فموقف العامة حيال تلك المجالات يكاد بدرجة أو بأخرى يكون مناقضاً تماماً لموقف أهل الاختصاص فيها، ومناقضاً أيضاً لموقف العامة حيال مجالات التخصص الأخرى. وسوف نقصر حديثنا على علم النفس بالتحديد.

ويتخذ العامة من علم النفس موقفاً يمكن تلخيصه في أنهم يعتبرونه مجرد معارف يمكن لأي فرد أن يحصلها دون أن يستلزم ذلك إعداداً خاصاً ولا خبرة متخصصة، بمعنى أن أي فرد يستطيع الإلمام بعلم النفس وحسم قضاياها من خلال وعيه لاتصالاته بالآخرين، بل حتى من خلال استبصاره بنفسه ومشاعره هو فحسب، أو حتى من خلال معلوماته الدينية أو الثقافية العامة، ومؤدى ذلك الموقف من الناحية العلمية أنه ليس ثمة تخصص في علم النفس، وبالتالي فليس ثمة متخصصون في علم النفس والجميع على قدم المساواة حيال قضايا ذلك العلم، دونما قيد سوى رغبة المرء نفسه في أن يشترك في الحوار أو يعزف عنه.

وبالتالي فإن من تطلق عليهم صفة التخصص في علم النفس ليسوا سوى قوم أكثر اهتماماً بذلك النوع من القضايا من سواهم وهم لذلك أكثر طرحاً لها. ولا تعنى زيادة اهتمامهم بتلك القضايا أو بطرحهم لها وجود التخصص بالمعنى المتعارف عليه..

وإذا كان العامة يتخذون من علم النفس موقف التبسيط المفرط إلى حد أنهم ينكرون عليه مجرد وجوده كعلم، فإن العديد من أهل الاختصاص في علم النفس يتخذون من مجال تخصصهم موقف التصعيب المفرط إلى حد أنهم لا يعتبرونه علماً فحسب بل يعتبرونه «أصعب» العلوم. و لا يكاد يدور نقاش بين

المتخصصين فى علم النفس على كثرة وتعدد اتجاهاتهم وبين غيرهم إلا ويطرح فيه أهل الاختصاص تلك القضية. قد يطرحها أحدهم من قبيل تقرير الواقع من وجهة نظره أحياناً، وقد يطرحها آخر كتبرير لنواقص يراها فى مجال تخصصه أو يخشى أن يراها فيه الآخرون، و قد يطرحها غير هؤلاء كتفسير لما يمكن أن تسفر عنه نتائج البحوث المختلفة من تناقضات.

ولكن هؤلاء جميعاً على اختلاف مدارسهم وتنافرها يكادون يجمعون على اعتبار تلك القضية، أى قضية أن علم النفس «أصعب» من بقية العلوم، هى التفسير الوحيد لتأخر انفصال علم النفس عن الفلسفة أو بعبارة أخرى لحدثة عهد علم النفس. ولقد يختلف علماء النفس فى حصرهم لأوجه تلك الصعوبة، أو فى تصنيفهم لتلك الأوجه أو ترتيبهم لها حسب أهميتها، ولكنهم مهما مضت بهم اختلافاتهم لا يخرجون عن التسليم بأن ما أدى إلى تأخر استقلال علم النفس إنما هو صعوبته، وأن تلك الصعوبة أمر لصيق بذلك العلم. ولعله ينبغى علينا قبل ان نتعرض لقضية ما إذا كان علم النفس أصعب من غيره من العلوم أن نلقي نظره أكثر تفحصاً على صعوبات علم النفس من خلال ما يقدمه لنا المتخصصون فى هذا المجال .. ويمكننا أن نقسم تلك الصعوبات إلى مجموعتين، تضم المجموعة الأولى أهم

الصعوبات المتصلة بموضوع علم النفس أى السلوك الإنساني. وتضم

المجموعة الثانية أهم الصعوبات المتعلقة بمناهج البحث فى علم النفس:

أولاً : الصعوبات المتعلقة بالموضوع:

1- التفرد:

ونعنى به عدم تشابه وحدات موضوع البحث، ففي حين يتعامل الباحث في مجال العلوم الطبيعية مثلاً مع مواد تتصف وحداتها بالتطابق والتكرار، وبالتالي فإنه يستطيع أن يسلم ابتداءً بأن ما تخلص إليه دراسته لوحدة مفردة يمكن أن يعمم ليشمل بقية المادة جميعاً، ومثل ذلك التعميم المطلق يكاد يكون مستحيلاً في مجال دراسة السلوك الإنساني.

٢- التغير:

ونعنى به أن موضوع بحث عالم النفس أى السلوك الإنساني موضوع يتغير. بل أنه يتخذ في تغيره مسارات متشعبة ومسالك شتى، فهو تغير بتغير الأمكنة والحضارات فسلوك الأوروبي يختلف عن سلوك الإفريقي، بل أن سلوك أبناء المدن يختلف عن سلوك القرويين وهكذا. وهو يتغير كذلك بتغير الأزمنة فسلوك إنسان العصر القديم يختلف عن سلوك الإنسان المعاصر، وسلوك المصريين في أوائل القرن التاسع عشر يختلف عن سلوكهم في النصف الثاني من القرن العشرين، بل أن سلوك الفرد الواحد واستجابته لمؤثر محدد يتغير من

لحظة إلى أخري.

ثانياً : الصعوبات المتعلقة بمناهج البحث:

١ - التنازل غير المباشر

ونعنى به أن طبيعة السلوك الإنسانى قد فرضت ضرورة تنازل هذا السلوك فى كثير من الأحيان بطرق غير مباشرة، فالكراهية مثلا ليس لها وجود مادى مباشر ولذلك لابد عند دراستها من استنتاجها من خلال أنواع مباشرة من السلوك تشير إلى وجود الكراهية.

٢ - التحيز:

ونعنى به أن عالم النفس يعد جزءاً من موضوع البحث بحكم كونه إنساناً. ولما كان هدف أى بحث هو الوصول إلى قوانين عامة، فإن هدف الباحث فى مجال السلوك الإنسانى هو الوصول إلى قوانين عامة تفسر سلوكه هو أيضاً. ومن هنا فإن تحيزاته الذاتية ورغباته وآراءه الشخصية قد تتدخل جميعاً فى تفسيره للنتائج التى يصل إليها، بل قد يمتد تدخلها لتؤثر فى اختياره للوقائع محل الدراسة وللمنهج الذى يختاره لتناولها.

٣ - صعوبة التجريب:

ونعنى بها أن تتناول السلوك الإنساني تتاولا تجريبيا أمر تقف دون تحقيقه عقبات عديدة وتثور فى وجهه اعتراضات شتى. منها ما يكتسب طبيعة أخلاقية تحول دون التجريب على البشر ومنها ما يرجع إلى صعوبات تكتنف الموضوع فى حد ذاته ويتطلبها التجريب كالتسليم بثبات جوهر الظاهرة وإمكانية قياسها بشكل مباشر.

ولعل تلك هى أهم وأبرز الصعوبات التى يقدمها العديد من الزملاء المتخصصين فى علم النفس، وهى التى يرتكنون إليها فى إصدار حكمهم بأن علم النفس «أصعب» من غيره من العلوم موضوعا ومنهجيا. وثمة اعتراض أولى على صيغة افعال التفضيل المستخدمة فى هذا المقام، واعتراضنا يرتكز على مجموعة من المسلمات الأساسية فى علم النفس بعامة وفرع القياس النفسى على وجه الخصوص، والتى تدور حول أنه من المرفوض علميا استخدام تلك الصيغة فى مقارنة شخص بآخر أو سمة بأخرى إلا إذا ما ارتكز ذلك الاستخدام على أساس من التقدير الكمي الذى لا يتأتى توافره إلا إذا كان لدى العالم أداة موضوعية تمكنه من تلك المقارنة، وهى ما يعرف بالاختبارات النفسية. لقد أصبح فى حكم المرفوض حاليا استخدام مثل تلك الصيغة فى

المقارنة بين الأفراد أو السمات. فليس مقبولاً القول بأن فلاناً أذكى من فلان، أو أن ذاكرة البدو أكثر حدة من ذاكرة أبناء الحضرة والوقوف عند هذا الحد.

بل أن ذلك القول ينبغي أن تسبقه سلسلة من الوقائع التفصيلية الدقيقة التي تؤدي إليه في النهاية، فلا بد مثلاً من القول أولاً بأن فلاناً هذا قد حصل على درجة كذا في اختبار كذا للذكاء وأن لذلك الاختبار معاملاً للصدق مقداره كذا وآخر للثبات لمقداره كذا.

خلاصة القول إننا وجدنا أنفسنا حيال العديد من الأحكام التقديرية على «علم النفس»، أحكام تتراوح بين الاستهانة به إلى حد خلعه من بين العلوم وأخرى تصل إلى التعقيد من شأنه إلى حد اعتباره «أصعب» العلوم، فأى تلك الأحكام أحق بأن يتبع، وكلها أحكام تقديرية.

ولنعد من جديد إلى تناول قضية الصعوبات المميزة لعلم النفس محاولين في ضوء ما ذكرنا؛ تبين ما إذا كانت بحق مقصورة على علم النفس دون غيره من العلوم، بادئين بالصعوبتين المتعلقتين بالموضوع وهما التفرد والتغير. ولنا أن نتساءل فيما يتعلق بالصعوبة الأولى، هل صحيح أن تفرد أو عدم تشابه وحدات موضوع البحث يعد صعوبة لا تواجه سوى المشتغل في مجال السلوك الإنساني؟ فلنلق بنظرة إلى علم البيولوجي، ألم يكن الجمع بين الأميبا والإنسان، وبين الديناصورات والنمل، وبين النسور والحيتان، باعتبارها جميعا كائنات حية أمرا تعترضه صعوبات شتى على رأسها تعدد أوجه الخلاف و«التفرد» بين كل من تلك الكائنات؟ لقد ظلت تلك الصعوبات قائمة بأشكال مختلفة إلى أن تمكن علماء البيولوجي من وضع أيديهم على اكتشاف الخلية وتركيبها وقوانينها باعتبارها الوحدة الأساسية التي تتكون منها أو بواسطتها جميع الأنسجة والأعضاء، ولم يكن ممكنا التوصل إلى مثل ذلك الاكتشاف إلا إذا سلم العلماء منذ البداية بأن وراء «تفرد» تلك الكائنات وتعددتها، تكمن خاصية مشتركة تجمعها جميعا باعتبارها «كائنات حية»، وأن التوصل إلى تحديد تلك الخاصية تحديدا موضوعيا، يعنى إمكانية التوصل إلى فهم القوانين العامة التي تحكم ذلك المجال كالجوع و التكاثر والموت إلى آخره. ويبدو أن الموقف في علم النفس يحمل الكثير من أوجه الشبه مع ذلك الموقف. فعلماء

النفس يسلمون حتما بإمكان التوصل إلى القوانين العامة التي تحكم السلوك
الإنسانى والتنبؤ بمساره، وذلك يعنى بدهاءة أن تفرد سلوك الأفراد ليس تفردا
مطلقا لا ضابط له ولا رابط. إن اختلاف استجابات الأفراد للمواقف المحبطة
وفقا لإدراكهم لتلك المواقف وتفسيرهم لها وطبيعة تنشئتهم الاجتماعية لا ينفى
أن البشر جميعا يخضعون لقانون سلوكى علمى واحد هو أن الإحباط يؤدى
إلى العدوان. وبالتالي فليس هناك مبرر قوى لافتراض أن ذلك التفرد أو الفروق
الفردية التى تميز البشر؛ يختلف عن نظيره فى الظواهر المتعلقة بالعلوم
الأخرى، والخلاصة أن تخطى الفروق والاختلافات بين الوحدات بل وتفسير
تنوعها، أو بعبارة أخرى تخطى «التفرد» وصولا إلى «الوحدة» التى تنظم
مجموعة من الظواهر فى قانون واحد، يعد سمة تميز كل علم بل تكاد تكون
مبررا لوجوده سواء فى ذلك علم النفس وعلم الكيمياء وغير ذلك من العلوم. ولو
انتقلنا إلى الصعوبة الثانية المتعلقة بالموضوع، أعنى خاصية التغير أى تغير
السلوك الإنسانى بتغير الأزمنة والأمكنة، سلوك الفرد يختلف عبر مراحل العمر
خلال النمو؛ كما يختلف أيضا عن سلوك أقرانه من نفس العمر فى سياقات
حضارية مختلفة؛ كما يختلف الأمر أيضا بالنسبة لتغير العادات و التقاليد بل
والمعتقدات عبر الأمكنة والأزمنة. غير أن تلك الخاصية بدورها ليست مقصورة
على السلوك الإنسانى فحسب، صحيح أن التغير فى السلوك الإنسانى يتخذ

صورة تختلف سرعة وعمقا عن صورته فى غير ذلك من الظواهر، ولكن لا شك كذلك فى أن التغير خاصة تشمل ظواهر الكون جميعا، والموقف الذى يواجهه العلماء جميعا هو حصر صور هذا التغير، تمهيدا للبحث فى مسبباته. والأمر يختلف من تخصص علمى إلى آخر؛ فعالم النبات مثلا مطالب بملاحظة اختلاف النباتات نوعا وشكلا من مكان إلى آخر، وملاحظة دورة حياة النبات الواحد أى تغيره من يوم إلى آخر، أى تغيره بتغير الأزمنة الى جانب تغيره بتغير الأمكنة، كل ذلك تمهيدا لتفسير تلك التغيرات أى اكتشاف العوامل المسببة لها. وكذلك الحال بالنسبة لعالم النفس فهو مطالب بملاحظة اختلاف وتغير السلوك الإنسانى بتغير الوسط الحضارى أو الأمكنة، ومطالب كذلك بملاحظة اختلافه وتغيره بتغير الأزمنة. خلاصة القول إن التغير شأنه شأن التفرد قوانين شاملة لظواهر الكون جميعا وليست خواصا تميز السلوك الإنسانى بالتحديد، وإن كان ذلك لا ينفى أن الصور التى يتخذها ذلك التغير تختلف من مجال علمى إلى مجال علمى آخر. ولا يقتصر الأمر . كما سبق أن أشرنا . على اختلاف وليس صعوبة موضوع دراسة علم النفس؛ بل يمتد إلى ما قد يبدو صعوبات تعترض إمكانية اعتماد دراسة علم النفس للسلوك على المنهج العلمى من حيث صعوبة التناول المباشر لموضوع البحث؛ وكذلك مشكلات إجراء التجارب على الظواهر السلوكية؛ وأخيرا مخاطر تحيز الباحث

فى مجال علم النفس لموضوع بحثه خاصة إذا كان يتصدى للمقارنة بين جماعته وغيرها من الجماعات، باعتباره جزءا من ذلك الموضوع..

ويأخذ البعض على علم النفس كما سبق أن أشرنا التزام جانب التناول غير المباشر لمادة بحثه، و لو أمعنا النظر لوجدنا أن ذلك لم يعد بالأمر الغريب فى مجال العلم عموما. فليس هناك ثمة شيء مادم ملموس يسمى بالجاببية مثلا ولذلك فحين يتصدى عالم الفيزياء لدراسة ظاهرة الجاببية يضطر إلى دراستها من خلال تأثيرها على المواد الملموسة أى التى يمكن تناولها مباشرة، والأمر شبيه بذلك بالنسبة لعالم النفس، الذى يتعرض لتناول ظاهرة كالضعف العقلى أو الذكاء مثلا فلا يجد أمامه سوى أن يلتمس وجود تلك الظاهرة ومقدارها من خلال العديد من مظاهر السلوك الإنسانى التى يستطيع تناولها وقياسها بشكل مباشر. والخلاصة أن تلك الصعوبة . وبصرف النظر عن تقييمها . تعد أمرا مألوفاً فى العديد من مجالات التخصص العلمى، وبالتالي فهى ليست وقفا على دراسة السلوك الإنسانى.

أما فيما يتعلق بأن عالم النفس يكون عرضة للتحيز خلال بحثه في السلوك
الإنساني حيث إنه جزء من الظاهرة التي يدرسها، وأن تلك خاصية يختص بها
علم النفس دون بقية العلوم، فإنه يكفي في هذا المجال أن نستعيد واقعة حدثت
عام ١٩٠٢ في مجال علم الفيزياء. سقطت باريس في القبضة الألمانية يوم
٢٨ يناير ١٨٧١ و تم إعلان قيام إمبراطورية ألمانيا من داخل غرفة المرايا
وسط قصر فرساي وفي قلب العاصمة باريس، و إضرام النار في أشهر رموز
فرنسا قوس النصر، وبذلك استسلمت الأمة الفرنسية، وسادت المرارة نفوس
الفرنسيين وأصبح شاغلهم الأول هو استعادة كرامتهم إلى أن تمكنوا من
استعادتها خلال الحرب العالمية الأولى التي أعلنوها على ألمانيا قبل الجميع
عام ١٩١٤.

و في عام ١٨٩٥ اكتشف عالم الفيزياء الألماني فيلهلم رونتنغن (١٨٤٥ -
١٩٢٣) الأشعة السينية المعروفة باسم أشعة إكس، و حصل على جائزة نوبل
في الفيزياء عام ١٩٠١.

خلال ذلك المناخ المفعم بالمرارة، وبعد مضي ثلاثين عاما على الهزيمة،
وبعد عامين من حصول رونتنجن الألماني على جائزة نوبل، أعلن رينيه

بروسبير بلوندلوت (١٨٤٩ - ١٩٣٠) وهو واحد من أبرز علماء الفيزياء الفرنسيين وعضو أكاديمية العلوم الفرنسية عن اكتشافه أشعة أطلق عليها اسم أشعة N على اسم جامعة نانسي حيث كان يشغل منصب أستاذ الفيزياء بها، و منحته الأكاديمية الفرنسية للعلوم جائزة لالاند. و بعد نشر اكتشافه العلمى نشر عدد من الفيزيائيين ما يدعم ذلك الاكتشاف..

وننتذكر كلمة قالها عالم الفيزياء الأمريكى ميخائيل ويتريل مدير مؤسسة فيرميلا ب يقول فيها إن أول ما يهتم بتربيته لدى تلاميذه الشبان هو تنبيههم لصعوبة وضرورة الاحتفاظ بأنفسهم بمنأى عن التحيزات اللاشعورية.

لقد حدث ذلك فى مجال الفيزياء، وهى كما يقال ملكة العلوم، ولم يكن بلوندلوت كاذبا ولا مدعيا؛ بل كان متحيزا لوطنه ولجامعته تحيزا جعله يرى ما ليس موجودا؛ و نظرا للطابع «الوطنى» لتحيزه فقد شاركه فى رؤية ما ليس موجودا عدد من أبرز علماء الفيزياء الفرنسيين. وقد حدثت أمور شبيهة بذلك فى مجالات علمية لا حصر لها، و فى بلاد عديدة؛ ولعل بلادنا لم تكن استثناء. ونخلص من ذلك إلى أن تعرض الباحث العلمى لخطر التحيز ليس بالأمر القاصر على البحث العلمى فى مجال السلوك الإنسانى فحسب، بل إنه خطر تتعرض له مجالات العلوم جميعا مادام أن القائمين بالبحث بشر لهم

آمالهم ، وأحلامهم ، وآراؤهم، ورغباتهم، ولهم بالتالى تحيزاتهم الشخصية و
الدينية و الوطنية.

أما صعوبة التجريب فى مجال علم النفس فهى أيضا ليست بالخاصية
القاصرة على ذلك العلم دون سواه، بل إن العوائق الأخلاقية والموضوعية التى
تحد من انطلاق التجريب فى مجال دراسة السلوك الإنسانى تكاد تكون هى
بذاتها نفس العوائق التى تحد منه فى مجال الطب مثلا؛ بل إن علوما قائمة لا
شك فى علميتها تقوم على الملاحظة المنضبطة والاستنتاج المنطقى مثل علوم
الفلك والرياضيات، والقضية فى النهاية هى تأكيد امكانية تخطى تلك العوائق
تحطيمها أو التفافها، وبأساليب تختلف من مجال علمى إلى مجال آخر.

خلاصة القول إن علم النفس، شأنه شأن أى علم آخر، يختلف عن بقية العلوم من حيث طبيعة القوانين النوعية التى تحكم الظواهر التى يتعرض لدراستها، ويتفق بدرجة تزيد أو تقل مع بقية العلوم فيما يتعلق بمشكلات المنهج العلمى ومناهجه وأسسها، ثم إن الظواهر المتعلقة بالسلوك الانسانى تخضع فى النهاية لما تخضع له كافة ظواهر الكون من قوانين عامة تنتظمها جميعا ولا مبرر إذن للحكم بأن الصعوبات التى تواجه المشتغل فى مجال علم النفس أكثر تعقيداً من تلك التى تواجه المشتغلين فى غير ذلك من المجالات..

المراجع

- د. قدري حفني. تاريخ علم النفس العام ،معهد الدراسات العليا للطفولة.
- د. محمد شحاته ربيع. تاريخ علم النفس ومدارسه، دار غريب للطباعة.
- د. عبد الستار إبراهيم. الانسان وعلم النفس، عالم المعرفة.
- د. محمود أبو النيل .علم النفس الصناعي ،دار النهضة العربية.